الفصل الثالث :

مقدّمة

انتعشت الرأسمالية مع سقوط الكتلة الاشتراكية انتعاشاً كبيراً لم تشهد له مثيلاً من قبل، وانطلقت إلى أعلى نقاط تطوّرها (أوج قمّتها)، أو إلى مرحلتها النهائية كما يرى البعض ويقول بإنها سوف تعيد دورتها من جديد بعد هذه المرحلة، انطلقت بكل قوّتها وبسرعات متزايدة أطلق عليها البعض اسم الرأسمالية التوربينيّة، وأطلق عليها البعض الآخر اسم الرأسمالية النفّاثة، ومنذ لحظة تدشين النظام العالمى الجديد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكيّة ، بدأت رياح وعواصف العولمة تهبّ بقوة وبعنف من الغرب على العالم كلّه، مبشّرة تارة ومهدّدة تارة أخرى ومهادنة تارة ثالثة، ترتدى ثوبها الرأسمالى وتكشف عن وجهها الأصلى مرّة، وترتدى ثياب المعارضة وأقنعة الرفض مرّة أخرى، تخلق مناخها الغربى بنفسها وتزيد خصوبته مرّة، وتجبر الآخر على خلق هذا المناخ وزيادة خصوبته مرّة أخرى، تؤدّى بنفسها دورها الإيجابى: الترويج والترسيخ والتكريس بشكل مباشر، وتؤدّى نفس الدور بشكل غير مباشر بخلق خطابها النقدى وتحليل وتفسير الجانب السلبى والاستفادة من الخطأ واستغلال الأزمة.

انطلقت تيارات العولمة من الولايات المتحدة الأمريكية تحت شعار القرية الكونيّة، والمصير الإنسانى الواحد (المشترك)، وحقوق الإنسان، وثورة الاتصالات، والانفجار المعرفى، والأخلاق الكونية، و...إلخ، اندفعت بكل طاقتها لتزيد فعاليات العابر للقومى، وتغيّر مفهوم الدولة، وتعيد صياغة كل شئ من جديد تحت ضغوط العولمة: انكماش العالم وتلاشى الحواجز المكانيّة والزمانيّة، وتدفع من ناحية أخرى/مضادة/ ناحية ردّ الفعل، إلى زيادة الإحساس

بالخطر على الذات/الهوية، بل وعلى الوجود نفسه/الحياة، زيادة مطّردة وبصفة خاصة لدى أمم العالم الثالث والثانى التى كانت تابعة أو حليفة للكتلة الاشتراكيّة وتعيش تحت مظلّة حمايتها، ودخل عالمنا مرحلة مخاض قاس تعيد تشكيله بالرغبة أو بالرهبة فى اتجاه رأسمالى شبه أحادى، إن لم يكن أحادياً مطلقاً.

وطبيعى أن تكون التربية باعتبارها مسئولة عن بناء البشر، ، فى مقدّمة المجالات التى يعاد تشكيلها بما يتماشى مع هذه التغيرّات وأهدافها وطبيعة عملها، بحيث تكون قادرة على زيادة طاقتها ومرونتها وعلى زيادة حساسيّتها حتى تستجيب للأحداث الداخلية والخارجيّة وتفرز ردّ فعلها بأقصى سرعة ممكنة حتى لا تفوتها فرصة التقدم وتبقى فى إحدى حالتى الانتظار/الكسل/التراخى أو اللهاث الدائم وراء قطارات التقدم.

لذلك كان من الضرورى أن نحاول الربط بين العولمة والتربية على كل المستويّات ومن مختلف الزوايا: المفهوم/ الأبعاد/ الأهداف/ الآليات/ النتائج/ التفسيرات، وهذا ما حاول هذا الفصل أن يفعله.

العولمة والمراكز الثقافية الأجنبية

إن العولمة بالمعنى الذى يروّج له الغرب – وفى مقدمته الولايات المتحدة الأمريكيّة – وأنصاره (المؤيّدون للعولمة)، تعنى زيادة التقارب والتعارف بين المجتمعات المختلفة، وتلاشى المسافات الزمانيّة وإزالة الحواجز المكانيّة، وهو ما يعنى زيادة قدرة وفعاليات وسائل ووسائط وآليات التواصل بين الشعوب وبعضها البعض كردّ فعل طبيعى، والمراكز الثقافيّة الأجنبيّة تأتى فى مقدمة المؤسسات المسؤولة عن إحداث هذا التعارف وهذا التقارب وزيادته أيضاً، فهو الهدف الرئيسى من وجودها واستمرارية عملها.

غير أن انعكاسات هذا المعنى على المراكز الثقافيّة للكتلة الرأسمالية ربما لم تتحقّق بدرجة كافية، أو بدرجة موازيّة تعبّر عن تفرّد هذه الكتلة بقيادة العالم، فأعداد الروّاد أو الدارسين بهذه المراكز وطبيعة أنشطتها أيضاً لم تشهد طفرة أو تطوّراً ملحوظاً يشير إلى غير الاعتياديّة، ولم يشذّ المركز الأمريكى عن هذا بالرغم من تفرّد الدولة الأم (أمريكا) بقيادة العالم[1]، أمّا تزايد الاعتماد على أجهزة الاتصال العولمى (إن صح التعبير)، فتأتى كضرورة للتقارب مع الآخر بصفة عامة، وليس مع الغرب وحده.

وعلى العكس من ذلك، فقد انخفضت نسب نشاط وروّاد المركز الثقافى الأمريكى فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر انخفاضاً كبيراً[2]، بالرغم من تزايد الشواهد المؤكّدة على إحكام الولايات المتحدة قضتها (العسكرية بصفة خاصة) حول العالم فى إطار حملتها ضد الإرهاب وإعلان رئيسها جورج دبليو بوش، إن من ليس معهم فهو عليهم (ضدّهم/عدوّهم)، وبالرغم من أن هذه الأحداث قد أفضت إلى عكس ما أشار إليها البعض باعتبارها تاريخاً فاصلاً بين العولمة وما بعدها، فقد أفضت إلى عالم ربّما يمكن وصفه بأنه أكثر أمريكية من أى وقت مضى، وليس هناك ما هو أفضل من انصياع المؤسسات الدولية والقوى العالمية الكبرى للرغبات الأمريكيّة، لإثبات صحة هذا المعنى، ليس فقط فى حربها ضد أفغانستان (نظام حكم طالبان وتنظيم القاعدة)، ولكن أيضاً فى اعتداءاتها المتكررة ضد العراق، وعدائها المستحكم ضد إيران، وإصرارها على استنساخ فكرة تغيير نظام الحكم بالقوّة، فيما يمكن وصفه بأنه عملية إحلال للشرعيّة الأمريكيّة بدلاً من الشرعيّة الدوليّة.

---

١) أنظر مراكز الكتلة الرأسمالية.
٢) أنظر المركز الثقافى الأمريكى

وإذا كانت التفسيرات المنطقيّة قد تشير وبوضوح لارتباط التوجّهات العدائية الأمريكيّة لكل ما هو إسلامى أو عربى، وهذا قد يفسّر انخفاض الإقبال على أنشطة المركز الأمريكى، وانخفاض الأنشطة ذاتها (كدواع أمنية فى المقام الأوّل) بالعلاقة بين أحداث الحادة عشر من سبتمبر وأفغانستان أو سياسات بن لادن، فلا يجب تجاهل التأويلات الرئيسة لارتباط نشأة ومفهوم العداء العولمى/الغربى، للإسلام، واعتباره عدوّاً رئيساً للغرب بصفة عامة ولأمريكا بصفة خاصة، بدلاً من العدو الطبيعى الأوّل سابقاً (الشيوعيّة/ الاتحاد السوفيتى)، والتنبؤات العولميّة بأن صراعات المستقبل ستكون صراعات (صدامات) حضارية عبر خطوط التماس الثقافى.[1]

أمّا بقية المراكز الكتلة الرأسمالية (الإنجليزى/الفرنسى/الألمانى) فمازالت متربعة على عرش النشاط الثقافى الأجنبى، ليس فقط للصلة الوثيقة بين أنشطتها والطموحات أو التطلّعات الفردية أو التوجّهات المجتمعيّة، وليس فقط لأن دراسة الثقافات الأجنبية أصبحت شرطاً حيوياً من شروط المواطنة العالمية الحديثة ولكن أيضاً لأنها تعبر عن واقع التفوّق الغربى على ما سواه، أو تعبّر عن حقيقة "إرث المنتصرين" كما يقول فوكوياما.

وهذا المعنى أيضاً ينسحب على تفسير الرواج الذى شهده المركز الثقافى السوفيتى (سابقاً) فى فترة الستينات، فتوجّهات الدولة الاشتراكيّة أيام المدّ الثورى، والعلاقات الأكثر من ممتازة التى كانت تربط بين مصر والاتحاد السوفيتى، لا يمكن أن تحجب حقيقة تفوّقه العالمى فى هذه الفترة السابقة كقطب مضاد للولايات المتحدة وللغرب معها.

ماهية العولمة:

١) أنظر: فرانسيس فوكوياما، وصمويل هنتنجتون.

يجتاح العالم منذ منتصف الثمانينات طوفان عارم من تعريفات مصطلح العولمة، بحيث يمكن إعداد مجلّد فى عدة مئات من الصفحات لحصر هذه التعريفات إذا أمكن حصرها، وترجع الكثافة الثقيلة لهذا الطوفان التعريفى إلى عدم الاتفاق حول دلالات المفهوم نظريّاً وتطبيقيّاً، وربّما يرجع السبب إلى عدم القدرة على فصل آثار العولمة على ميادين الجهد الإنسانى المختلفة عن بعضها البعض، فلا يمكن التعامل مثلاً مع الآثار الاقتصاديّة بمعزل عن الآثار الثقافيّة أو السياسيّة أو الاجتماعيّة، ويتميّز الاختلاف حول العولمة ونتائجها بالعنف الفكرى والتناقض الشديد، ففريق يرى أنّها واضحة كل الوضوح، والآخر يرى أنّها غامضة كل الغموض، وجبهة تعتقد أنّها الخير على إطلاقها، وتعتقد الآخرى أنّها الشر على إطلاقها، وجبهة ثالثة تقف موقف الوسط.

"فالعولمة أو الكوننة *Globalization* هى العمليّة التى يتمّ بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الدول والشعوب، والتى تنتقل فيها المجتمعات من حالة الفرقة و التجزئة إلى حالة الاقتراب والتوحّد، ومن حالة الصراع إلى حالة الوفاق، ومن حالة التباين والتمايز إلى حالة التجانس والتماثل، وهنا يتشكل وعى عالمى وقيم موحّدة تقوم على مواثيق إنسانيّة عامة" [١].

و"العولمة ليست مرادفاً لتعبير عالم موحّد، بل هى تتجه أكثر فأكثر إلى خلق نظام متشابك لعوالم متّصلة، أى مرتبطة فيما بينها" [٢].

والعولمة. تآكل دور (وسيادة) الدولة الوطنى (القومى) لحساب دور (وسيادة) ما هو عالمى [٣].

---

١) أحمد مجدى حجازى، (العولمة وتهميش الثقافة الوطنيّة، رؤية نقديّة من العالم الثالث)، **مجلة عالم الفكر**، المجلّد الثامن والعشرون، العدد الثانى، الكويت، سنة ١٩٩٩، ص ١٢٦.

٢) ميشيل كلوغ، (أربع أطروحات حول عولمة أمريكا)، ترجمة : محمد سيف، **مجلة الثقافة العالمية**، العدد ٨٥ الكويت، ١٩٩٧/١١، ص ٥٦.

٣) حسنين توفيق إبراهيم، (العولمة : الأبعاد والانعكاسات السياسية، رؤية أوّليّة من منظور علم السياسة)، **مجلة عالم الفكر**، المجلّد الثامن والعشرون، العدد الثانى، الكويت، سنة ١٩٩٩ ص ص : ١٩٤، ١٩٨.

والعولمة. مصطلح مراوغ لا يعبّر فى كل حالاته سوى عن استمرارّية الهيمنة الغربّية على العالم[١]، أى أنّها تطوير لآليّات السيطرة، أو تعبير عن شكل استعمارى جديد (متطوّر).

والعولمة عمليّة مستقلّة بذاتها نسبيّاً، مكوّنة من شقّين: الأوّل هو تخصيص ما هو كونى، والثانى هو كوننة ما هو خاص، ويقصد بتخصيص ما هو كونى تحويل مشكلة الكونية إلى شكل مادى عالمى، أى تيسير وإعداد المرحلة الحاضرة للعولمة المتسارعة بالبحث فى معنى العالم ككل، أمّا كوننة الخاص فتشير إلى الكونيّة (العالميّة) فى بحثها عن الأنماط المتجذّرة لتجسيد الهويّة (الخاص)، بمعنى أن الأصوليّة (وهى نمط من التفكير والممارسة) تصبح مؤسسّية على المستوى العالمى [٢].

والعولمة هى تعبير عن الغربنة *Westernization* ، بمعنى أن الأيديولوجيّة تبيح عكسها، فالدعوة للاندماج فى العالم تتحوّل إلى اندماج فى الغرب [٣]، إن "الإمبرياليّة ذهبت وحلّ محلّها الاستعمار الجديد والعولمة"[٤].

و"العولمة تشير إلى وعى وإحساس الأفراد فى كل مكان بأن العالم ينكمش ويتقلّص ويقترب من بعضه بعضاً، أى يزداد وعى الأفراد بعالميّتهم من خلال المصير الإنسانى الواحد، والوعى الانتمائى المشترك، وتقارب المسافات وتقارب الثقافات، وانتهاء العزلة والانعزال"[٥].

---

١) مصطفى رجب، (العلاقة بين الإعلام والعولمة)، مرجع سابق.
٢) رونالد روبرتسون، (العولمة : النظرية الاجتماعّية والثّقافة الكونّية)، ترجمة: أحمد محمود، ونورا أمين، **المشروع القومى للترجمة**، العدد ٧٥، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، سنة ١٩٩٨، ص ٣٥٧.
٣) محمد عبد الشفيع عيسى، (رؤية إلى المستقبل العربى من التحديث إلى استئناف التطوّر الحضارى)، **العولمة والتحوّلات المجتمعّية فى الوطن العربى**، مكتبة مدبولى، القاهرة، سنة ١٩٩٩، ص ص : ١٨٠، ١٨١.
٤) فردريك جيمسون، (الثّقافة ورأس المال المالى)، ترجمة: بدر الرفاعى، **مجلة الثّقافة العالمّية**، العدد ٨٨، الكويت، ١٩٩٨/٥، ص ٩.
٥) عبد الخالق عبد الله، (العولمة : جذورها وفروعها وكيفّية التعامل معها)، **مجلة عالم الفكر**، المجلّد الثامن والعشرون، العدد الثانى، الكويت، سنة ١٩٩٩، ص ص : ٥٢، ٥٣.

ويشير مصطلح العولمة إلى أن "الرأسماليّة نظام يتجاوز أو ينزع إلى تجاوز القومى"[١]

والعولمة هى اكتساح أشياء معيّنة للعالم كله، هذه الأشياء هى سلع وخدمات ومعلومات وقيم حضارة السوق [٢].

والعولمة هى "تدويل كونى رأسمالى للفكر والإنتاج والاستهلاك". [٣]

وبناءً على ما سبق من تعريفات، يمكن استنتاج تعريفين للعولمة :-

الأوّل : مثالى غير متحقّق، ويقصد به:

فعل العوامل العابرة للقوميّات بهدف إزالة حواجز وحدود الخصوصيّات الحضاريّة (الوطنيّة/القوميّة/الهويّة/ .. إلخ).

والثانى: استعمارى رأسمالى غربى متحقّق، ويقصد به:

إزالة الحواجز والحدود الحضارية لصالح الحضارة الغربيّة.

وعادة ما يوظّف مروّجو الفكر الرأسمالى التعريف المثالى لصالح التعريف الاستعمارى، أو يخلطون بين التعريفين على أقلّ تقدير بهدف إضاعة ملامح الحقيقة أو طمس الخطوط الفاصلة بين الحلم والوهم.

أمّا فكرة الوطنيّة، بمعنى تفعيل عناصر الثقافة الوطنية حتى تصبح قادرة على التفاعل مع الثقافة العالمية الجديدة من خلال خصوصيّات الوطنى للاستفادة من إيجابيّات العالمى وتجنّب سلبيّاته، فهى ليست جديدة- من وجهة نظر الباحث سوى فى المسمّى فقط، والذى جاء على متن القياس لمصطلحات التعولم الجديدة (الكوننة/الكوكبة/الكونيّة/الكوكبيّة)، فقد وردت هذه الفكرة كثيراً فى كتابات علمائنا ومفكّرينا فى معظم ميادين الجهد الإنسانى.

---

١) عصام خفاجى، (ملاحظات حول العولمة والدولة القوميّة)، **العولمة والتحوّلات المجتمعية فى الوطن العربى**، مكتبة مدبولى، القاهرة، سنة ١٩٩٩، ص ٣٧٧.

٢) جلال أمين، (العولمة)، **سلسلة اقرأ**، العدد ٦٣٦، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٩٨، ص ص : ١١،١٢

٣) عدنان سليمان، (مقاربة أولية لتداعيات العولمة على المجتمع العربى)، مرجع سابق، ص : ١٤٣.

وتكمن الخطورة الشديدة - من وجهة نظر الباحث - في ترويج ما يسمّى بالثقافة العالمية الجديدة، لأنّها غير متحقّقة ومن غير المنتظر تحقّقها على المدى البعيد على أقلّ تقدير، فالثقافة السائدة عبر العالم كما تشير الشواهد وتثبت الإحصائيّات هى الثقافة الغربيّة الرأسماليّة.

العولمة : النشأة والتطور (التاريخ):

ينظر رونالد روبرتسون - أحد أهمّ منظّرى العولمة الغربيين - للعولمة تاريخياً من خلال مستويين:- [1]

الأوّل : أنّها حديثة جداً ترتبط بمعنى الحداثة وما بعد الحداثة (بصورة أكبر)منذ أن شاع استخدامها فى منتصف الثمانينات، تلك هى العولمة الحديثة المتطوّرة أو (العولمة الكبرى).

الثانى: لا يمكن الفصل بين مفهوم العولمة الكبرى (المتطوّرة) عن النشأة التاريخيّة لها ولمراحل تطوّرها عبر الحضارات الإنسانيّة، فيما أطلق عليه عمليّات (العولمة الصغرى).

فالعالم القديم يزدحم بالأفكار المختلفة للموقع الكونى للعالم، وقد كانت هذه الأفكار فى موضع القلب من كل الحضارات السابقة، لدرجة أن ما يطلق عليه الآن "بالكونيّة" قد تمّت مناقشته فى كتاب "التاريخ العالمى لـ بوليبيوس *Polibius*"[*]، الذى يتحدّث فيه عن قيام الإمبراطوريّة الرومانيّة.

فقد أصبح العالم من قبل كلاً موحّداً نظريّاً عبر عدّة فلسفات، منها الهيمنة الإمبرياليّة لأمّة واحدة مسيطرة، ومنها انتصار البروليتاريا العالميّة واستسلام النزعات القومية، وانتصار التجارة الحرّة.

---

١) رونالد روبرتسون، مرجع سابق، ص ص : ١٢٢، ١٢٥.

* مؤرخ إغريقى (٢٠٢ - ١٢٠ ق.م).

ويذهب عدد كبير من العلماء إلى مخالفة هذا الرأى، ونفى صفة الحداثة (تاريخيّاً) - بعيداً عن الحداثة كفلسفة - لتأكيد صفة التطوّر، فهى صورة متقدّمة لمفهوم قديم، فالاتصال ليس واقعاً حديثاً، بل هو ظاهرة قديمة قدم الإنسانيّة، بداية باللغة كوسيلة اتصال، والكتابة وسبل، انتشارها، و الجديد فى الأمر أن الحداثة أنتجت نماذج متطوّرة للاتصال، الإذاعة والتليفزيون وآلة التصوير والسينما، ثم الكومبيوتر والفاكس، ثم ربط النظم المعلوماتيّة فى شبكة موحّدة *Inter-Connection* ، ثم زاد التطوّر إلى مستويات تحدّ غير مسبوقة عبر الأقمار الصناعيّة *Satellites* ، وشبكة الأسلاك البصريّة. [1].

فالعولمة بمعنى تلاشى المسافات السريع مفهوم قديم جداً يرجع إلى نشأة الحضارة الإنسانيّة، والفارق الزمنى هو اختلاف قوّة الفعل ومدى الاستجابة، فمع انتقال مركز القوى الدافعة للعولمة من مجتمع إلى آخر [2]، تنتقل وتتغيّر ملامح التعولم.

فالعولمة ظاهرة قديمة جداً، بدأت على أقل تقدير منذ الكشوف الجغرافيّة، باستثناء بعض الفترات الخاصة التى يتراجع فيها معدّل التبادل التجارى، كما حدث فى أزمة الثلاثينات من القرن العشرين، أو بعض الظروف الخاصة الأخرى، كتفضيل بعض المجتمعات الانغلاق على ذاتها، كما حدث فى الاتحاد السوفيتى السابق والصين واليمن، فعمر ظاهرة العولمة لا يقل عن خمسة قرون بأيّة حال من الأحوال. [3]

---

١) سمير أمين، (مناخ العصر - رؤية نقدّية)، **العولمة والتحوّلات المجتمعيّة فى الوطن العربى**، القاهرة، مكتبة مدبولى سنة ١٩٩٩، ص ص / ٦٢ : ٦٤.

٢) جلال أمين، **العولمة و التنمية العربيّة، من حملة نابليون إلى جولة ا لأوروغواى**، لبنان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، سنة ١٩٩٩، ص ص ٧، ٨.

٣) جلال أمين، (العولمة)، مرجع سابق، ص ص : ١٣، ١٤.

العولمة الاقتصاديّة:

تذهب معظم الآراء إلى أن الاقتصاد هو القاعدة الأساسية التى يقوم عليها بناء القرية الكونية المعولمة، "فالعولمة أساساً هى مفهوم اقتصادى قبل أن تكون مفهوماً علميّاً أو سياسيّاً أو ثقافيّاً أو اجتماعيّاً".(١)

إن العولمة الاقتصادية تعنى وجود تقسيم دولى جديد للعمل، بعيداً عن:-

١) الرقابة التقليديّة.

٢) تدخّل الدولة فى النشاط، خاصة فيما يتعلّق بانتقال السلع والخدمات ورأس المال.

أى أن الاقتصاد استقلّ عن الدولة، وأن دور الدولة فى التحكّم فى الاقتصاد قد انتهى (داخليّاً وخارجيّاً) باختصار شديد، إن مركز الثقل الاقتصادى انتقل من المحلّى إلى العالمى.(٢)

ويرى المفكّر "سمير أمين" أن العولمة الاقتصادية، هى تفكيك للبنى الاقتصادية المتمحورة (القائمة) على ذاتها، واستبدالها بنظام اقتصادى عالمى، أى أنّها عمليّة إلغاء للحدود والحواجز القوميّة والتشريعية والجمركيّة وتنشيط لعمليّات التبادل الحرّ التجارى والمالى وتسهيل لحرية انتقال رؤوس الأموال.(٣)

والاقتصاد الرأسمالى كأيديولوجيّة تتجاهل الكيانات الوطنيّة، والسوق هو التحدّى الأكثر جرأة ووقاحة على الحدود.(٤)

---

١) عبد الخالق عبد الله، مرجع سابق، ص ٦٧، عن:-
Wolfgang H. Reinicke, 1998, Global Public Policy, Washington, D.C., Brooking Instituite Press.

٢) المرجع السابق، ص ص : ٦٧، ٦٨.

٣) محمد دياب، (عولمة الإقتصاد)، **مجلّة العربى**، العدد ٤٩٤، الكويت، ١/٢٠٠٠، ص ٣٩.

٤) حسين بهاء الدين، **الوطنية فى عالم بلا هويّة، تحديات العولمة**، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٠، ص ٩٦

ورأس المال فى ظل العولمة لا يعرف الانتماءات ولا الأوطان ولا الحاجات أو الظروف الخاصة، لا يعرف سوى الربح والمنفعة، والمبدأ الاقتصادى الوحيد هو المنافسة، والهدف هو الإنتاج الأعلى جودة بأقل الأسعار(أسعار اليد العاملة، وأسعار التكلفة) فى أى مكان فى العالم.

وهناك من يرى أن العولمة ليست سيطرة الشركات المتعدّدة الجنسيّة وليست سيطرة أسواق المال ولا الرأسماليّة، وأنّه يجب الفصل بين العولمة والهيمنة فالعولمة (العالميّة) هى المرحلة الأخيرة من توسيع الأسواق، وقد تعدّى اقتصاد السوق حدود الدولة ليشمل غالبيّة العالم بحيث يتمّ التبادل دون حواجز سياسية أو حدود سياديّة أو موانع وطنيّة، فالعولمة مرحلة من مراحل التطوّر تتميّز بسماتها الخاصة مثل ظهور أسواق جديدة، فأسواق العملات التى تعمل على مدار الساعة حول العالم كلّه، وظهور أدوات جديدة للتعامل والاتصال (الإنترنت، المحمول الشبكات الإعلاميّة)، وظهور "لاعبين جدد" – كما يسمّيهم سدنة العولمة والمعارضون لها أيضاً - على الساحة الدوليّة مثل المنظّمات الدوليّة، (منظمة التجارة العالميّة، منظمات المجتمع المدنى، قواعد خدمات التعامل التى تنظم الاتفاقات والأنشطة). [1]

وأيّا كانت درجات الاتفاق أو الاختلاف حول مضمون العولمة الاقتصاديّة أو تاريخها ونشأتها أو آثارها أو أى شئ آخر يتعلّق بها من قريب أو من بعيد، فهناك مجموعة من الحقائق التى لا يجب تجاهلها أو إغماض العين عنها بأيّة حال من الأحوال عند التعامل مع هذه الظاهرة خاصة الأبعاد الاجتماعيّة والأبعاد الثقافيّة والأبعاد البيئيّة، ويتصدّر هذه الحقائق عاملان فى غاية الأهمية:-

١) حازم الببلاوى، (النظام الاقتصادى الدولى المعاصر، من نهاية الحرب العالمّية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة) **عالم المعرفة**، العدد ٢٥٧، الكويت، سنة ٢٠٠٠، ص ص : ٢٣٤، ٢٣٦.

الأوّل : المؤسسات الدوليّة :

فقد قامت بدور رئيسى فى إعادة توجيه الاقتصادات الوطنّية نحو السوق المفتوحة، وفرضت على البلدان النامية والمتخلّفة سياسات التكييف الهيكلى، وأشرفت على تنفيذها، وقامت بتقييم وتقويم النتائج، وتصنيف البلدان تبعاً لمدى الانصياع لأوامرها، ومدى الاهتمام بتطبيق ملاحظاتها بعيداً عن طبيعة العلاقة بين هذه السياسات العالمية بالواقع الاجتماعى أو الثقافى الوطنى، ولا يخفى على أحد تبعّية هذه المؤسسات (خاصة بنك وصندوق النقد الدوليين) للدول الرأسماليّة المتقدّمة، وتمحور وتكيّف أهدافها وعملها حول تنفيذ سياسات هذه الدول.

الثانى : مجتمع الخمس المعولم :

لقد تمكّنت فئة قليلة متميّزة اجتماعيّاً حول العالم كلّه من الاستحواذ على مقادير هائلة من الثروة على حساب الغالبيّة العظمى من البشر، واستطاعت أن تسيطر على الاقتصاد العالمى وتدفع به بقّوة فى مسارات السوق المعولمة، كما استطاعت أن تسيطر على الأجهزة السياسيّة (الحكومات، سلطات اتخاذ القرار) وتوظيفها لخدمة مصالحها، ومن أهم خصائص هذا النظام. اعتماده على مجموعة من المصادر التى تغذيه بصفة مستمرّة:- [1]

١- الفقر الإنسانى.

٢- تدمير البيئة الطبيعيّة.

٣- توليد الفوارق الاجتماعيّة.

٤- تشجيع العنصريّة.

---

١) ميشيل تشوسو دوفيسكى، (عولمة الفقر)، ترجمة : محمد متسجير مصطفى، **كتاب سطور**، العدد العاشر، القاهرة ٢٠٠٠ م، ص ٢٨.

٥- الشقاق العرقى.

٦- تقويض حقوق المرأة.

٧- المواجهات والصراعات المدّمرة بين القوميّات.

٨- تدمير المجتمعات المدنيّة.

٩- تقويض العيش البشرى.

لقد ظهر تقسيم دولى "ثلاثى جديد للسلطة" يعتمد على التعاون بين صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، ومنظّمة التجارة العالمية فى الإشراف على اقتصادات البلدان النامية، وفى ظل هذا التقسيم الجديد تمّت إعادة صياغة للعلاقات بين الحكومات الوطنيّة والمؤسسات القائمة فى "واشنطن"، فبعد استكمال جولة "الأوروجواى" فى "مراكش"، وإقامة منظمة التجارة العالميّة فى ١٩٩٥م، لم يعد تنفيذ تعليمات سياسات صندوق وبنك النقد الدوليين معلقاً بالاتفاقيات المخصصة لهذه البلدان فقط، فقد أصبح من الضرورى اتباع بنود وبرامج التكييف الهيكلى المكرّسة فى مواد اتفاقات منظّمة التجارة العالميّة (تحرير الجارة، ونظام الاستثمار الأجنبى). [١]

العولمة المالية

"فى ظل الرأسمالية الاحتكاريّة يتّجه الفائض الاقتصادى *Economic Surplus* (الفرق بين ما ينتجه المجتمع وتكاليف الإنتاج) نحو التزايد – من حيث نسبته إلى الدخل الكلّى – ويوجد بشكل عام ثلاثة مجالات أساسيّة لاستيعاب هذا الفائض هى :- [٢]

١- الاستثمار.

---

١) ميشيل تشوسو دوفيسكى، المرجع السابق، ص ٢٩.

٢) رمزى ذكى، (رأسمالية المضاربات، الاقتصاد السياسى لرأس المال المالى الدولى)، **مجلة النهج**، العدد ٢٠، سوريا، سنة ١٩٩٩، ص ص : ١٨، ١٩.

٢- الاستهلاك.

٣- التبديد.

وفى ضوء علاقات الإنتاج الرأسمالى لا توجد المنافذ الاستثماريّة والاستهلاكيّة الكافية لامتصاص هذا الفائض المتزايد، ونظراً لأن هذا الفائض (الذى لا يمكن امتصاصه) لن يتمّ إنتاجه مرّة أخرى، فإن هذا الوضع يفضى إلى انخفاض النمو، وزيادة البطالة، والركود، لذلك تخلق الرأسماليّة الاحتكاريّة من داخلها قوى مضادة تعمل فى الاتجاه المعاكس لتفادى هذه النتائج، ويتمّ امتصاص هذا الفائض عبر طريقين:- [١]

- الإنفاق العسكرى.
- النشاط التسويقى والإعلانى والخدمات (التبديد الاقتصادى).

يزيد الاستثمار الخارجى مشكلة امتصاص الفائض التجارى تفاقماً، لأنه يزيد صبّ هذا الفائض فى خزائن الدولة الأم. [٢]

وقد أدّى رأس المال المالى بتدفقه إلى البلاد النامية والبلاد الاشتراكية (سابقاً)، دوراً فى غاية الأهمية لتخفيف حدّة الأزمة الاقتصاديّة فى البلاد الصناعيّة الرأسماليّة، حيث ترتبط هذه الأموال (القروض، والمعونات، والمساعدات و ... إلخ)، بزيادة حجم التدفّق السلعى من الدول المانحة، أى أنها تتجنّب ارتفاع مستويات البطالة ومستويات الطاقات الإنتاجيّة المعطلة، وقد أشار "فيلى برانت" إلى هذا صراحة فى تقريره الشهير: الشمال – الجنوب، برنامج من أجل البقاء[٣] بالإضافة إلى الوظائف عبر القوميّة الجديدة التى يخلقها هذا النشاط لأبناء الدول الصناعيّة.

١، ٢) المرجع السابق، ص ١٩.

٣) رمزى ذكى، المرجع السابق، ص ص : ٢٣، ٢٤.

القضية إذن أبعد ما تكون عن عولمة رأس المال العالمى (كما يروج سدنة الرأسمالية) بإلغاء الرقابة المصرفيّة وإزالة الحواجز والعقبات أمام حرية حركة وانتقال رأس المال، بل هى إتاحة فرصة لأممية رأس المال العالمى لالتهام موارد العالم كلّه، ونهب ما تبقى من خيرات العالم النامى بصفة خاصة.

والأرستقراطيين الجدّد (سكّان أرخبيل الثراء) هم وحدهم المستفيدون أو الفائزون بنصيب الأسد على أقل التقديرات، فهم المسيطرون على والموجّهون لحركة رأس المال المالى، ويخضع لشروطهم قياديّو وسياسيو العالم كلّه. فقد امتدّت أصابع أخطبوط أمميّة رأس المال إلى كل الميادين الاقتصاديّة والتجاريّة والسياسيّة و ... إلخ، وأمسك هؤلاء الصبيان "اللاعبون الجدد" مدعومين بجيش إلكترونى – بالمقادير الحيويّة للعالم لدرجة دفعت رئيس البنك الألمانى الفيدرالى إلى القول صراحة "إن رجال السياسة أصبحوا من الآن وصاعداً تحت رقابة الأسواق الماليّة، وهذا ما أكّده الزعيم النقابى الفرنسى "مارك بلو ندال" فى منتدى دافوس سنة ١٩٩٦م قائلاً "إن السلطة الرسميّة لم تعد تمثّل فى أحسن الحالات سوى مقاولة داخليّة تابعة للمؤسسة، السوق يحكم والحكومة تسير". (١)

"إن التحرير المالى أدّى إلى تشجيع تدّفق رؤوس الأموال الساخنة قصيرة الأجل *Hot Money*، الباحثة عن الربح السريع، مما أدّى إلى حدوث آثار ضارة بالاستقرار الاقتصادى، وذلك فى حالة التقلّبات الفجائيّة التى تحدث فى حركة دخول وخروج هذه الأموال (ارتفاع معدّلات التضخّم، ارتفاع معدّل الصرف، زيادة أسعار الأصول الماليّة، والعقاريّة، ...) كما أن إجراءات التحرير المالى عرّضت الجهاز المصرفى للأزمات ولتدّفق الأموال القذرة (غسيل الأموال)، وتعرّض البلد

١) الحبيب الجنحانى، (ظاهرة العولمة، الواقع والآفاق)، **مجلة عالم الفكر**، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثانى، الكويت، ١٩٩٩/٣، ص ٢٨.

لهجمات المضاربين وإلى إضعاف السيادة الوطنيّة فى مجال السياسة الماليّة والنقديّة، كما شجّعت على هروب واسع لرؤوس الأموال الوطنيّة للخارج *Capital Flight*، كما أن عولمة الأسواق الماليّة أدّت إلى سرعة انتشار الأزمات النقديّة من منطقة إلى أخرى، ومن بلد لآخر بسبب علاقات التشابك والترابط التى تنشأ بين هذه الأسواق [1]، والمثال الواضح على هذا سرعة انتشار الأزمة الاقتصاديّة التى حدثت فى دول النمور الآسيويّة فى صيف ١٩٩٧ إلى عدد من بلاد العالم. [2]

العولمة المالية و"اقتصاد الكازينو":

يؤدّى اعتماد الاقتصاد الوطنى على الأموال المتدفّقة من الخارج إلى تحسّن مظهرى مؤقّت على المدى القريب، فى حين أنّه يؤدّى فى الحقيقة إلى تقويض الأسس الفعليّة للتنمية الاقتصاديّة. فتدفّق الأموال من الخارج يساعد على رواج اقتصاد الفقاعات *The Bubble Economy*، أى رواج الاقتصاد دون اعتماده على قواعد إنتاجيّة فعليّة، فقد يرجع سبب الرواج الاقتصاد دون اعتماده على قواعد إنتاجيّة فعليّة، إلى ارتفاع أسعار بعض المواد الأوليّة، فقد عاشت مصر على سبيل المثال، حالة من الرواج الاقتصادى أثناء الحرب الكوريّة بسبب ارتفاع أسعار القطن، كما قد يرجع سبب الرواج إلى زيادة المضاربات فى البورصات، أو إلى تنشيط أسواق الأراضى والعقارات كما حدث فى الفترة الأخيرة، ويندرج كل هذا تحت ما يسمى "بالأرباح الفورية" أى دون بذل مجهود أو تحسّن حقيقى فى الإنتاج ويفضى كل هذا إلى زيادة الإنفاق الإضافى، "أى إلى المزيد من التغذية العكسيّة" التى تشجع "الرواج الاستهلاكى" وينتهى هذا كلّه اقتصاديّاً إلى ما يعرف بـ

---

١) رمزى ذكى، (الطريق إلى سياتل، آثار العولمة وأوهام الجرى وراء السراب)، **مجلة النهج**، العدد ٢١، سوريا، سنة ٢٠٠٠، ص ١٦.

٢) المرجع السابق، ص ١٦، عن :-
رمزى ذكى، (المحنة الآسيوية)، دار المدى، دمشق، بيروت، سنة ١٩٩٩.

"فقاعة أسعار الأصول *Asset-Price Bubble*" بمعنى ارتفاع أسعار الأصول الاقتصاديّة نتيجة للمضاربة المحمومة فى البورصة، دون تحسّن اقتصادى فعلى.[1]

وهذا ما أشار إليه الاقتصادى البريطانى مؤلّف "النظرية العامة" سنة ١٩٣٦، فى خطورة بناء الاقتصاد على روح المضاربة وليس على التراكم الرأسمالى الفعلى، الأمر الذى ينتهى بأن يحصد بعض رجال الأعمال والمضاربين حصاد المضاربات، وتتفتت الأسس الحقيقيّة للتنمية، وهو ما يعرف بـ "اقتصاد الكازينو".[2]

وتبقى أهمية الإشارة إلى أن جذب رؤوس الأموال والاستثمارات الأجنبيّة يؤدّى دوراً كبيراً فى الترويج للكوكبى وإضعاف المحلّى وتقليل أهميته، خاصة فى ضوء تخلّى الدولة عن حمايته، مما يسمح بزيادة قوى وضغوط العولمة الماليّة ليس فقط على المجالات الاقتصاديّة أو التجاريّة ولكن على المجالات الاجتماعيّة والثقافيّة كافة.

"والشروط البنيويّة للرأسمالية الكوكبيّة، وتخلّى الدولة القومية تدريجيّاً عن المسئوليّات التى تحمّلها لفترة وجيزة من أجل إصلاح عدم المساواة فى المجالات القوميّة قد أدّى دوراً كبيراً لتأكيد ارتباط التحليل الاجتماعى بالمكان، وهذا تحديد لأن مثل هذا التخلّى قد وضع الأمكنة فى مواجهة رأس المال دون وساطة الدولة، وقابل بين الأمكنة بعضها ببعض فى التنافس من أجل اجتذاب رأس المال، ووسط هذه العمليّة كشف عن تفتيت التحليل الاجتماعى القائم على اختلاف الأمكنة، ومن ثم كانت التحاورات التى تسمع هذه الأيام باستمرار والقائلة بإنه من الممكن الفهم الأفضل لصلات بين الطبقات فى تجلّياتها ذات المرتكزات المكانيّة، وإن للنوع مظهراً مكانياً لا يتوجّه إلى مؤهلاته من قبل الطبقة

١) محمود عبد الفضيل،(مصر ورياح العولمة)، **كتاب الهلال**،العدد ٥٨٥،القاهرة،دار الهلال،سنة ١٩٩٩، ص ص : ٣٦، ٣٧.
٢) المرجع السابق، ص ص : ٣٨، ٣٩.

أو الجنس، وإن الإثنية التى تمّت كوكبتها نتيجة تحرّكات الشتات المعاصرة بحاجة لأن يتمّ فهمها بعلاقتها بالأمكنة، أى حيث تجابه الإثنيّات المختلفة بعضها البعض، وإن الجنس الذى ظلّ دائماً بلا معنى لا يحمل معانى مختلفة فى المواقع المختلفة، فالتساؤل حول السيطرة الذى تتيحه الأمكنة ليس بديلاً للتساؤل حول سيطرة تجريدات التجانس. (١)

العولمة التجاريّة :

لكى تنطلق طائرة الاقتصاد المعولم النفاثة بأقصى سرعاتها كان من اللازم تطوير جناحيها حتى يصبحا قادرين على حمل وتحمّل فعل الموتورات الكونيّة العملاقة، الشركات متعددة الجنسيّة، الشركات الفضائيّة/الاتصالاتيّة فجسد الطائرة هو المؤسسات الدوليّة، أمّا الجناحان فهما جناح التجارة، وجناح رأس المال/الاستثمار، وتمثّل منظمة التجارة الدوليّة، واتفاقيات الجات الوقود الأساسى لهذه الطائرة. فهناك ١٤٠ دولة أعضاء فى المنظمة، و٣٠ دولة فى مرحلة الانضمام، وقد تعهّدت كل الدول بتخفيض التعريفة الجمركيّة، وإلغاء قيود ومعوّقات التجارة (الاستيراد والتصدير)، وقد تم تعزيز اتفاقية الجات بموافقة وتوقيع ٧٠ دولة على اتفاقيّة الخدمات الماليّة، وأصبحت هذه الدول تستحوذ على ٩٥٪ من تجارة المصارف والتأمين والأوراق الماليّة العالميّة، وتتجه الاتفاقيات فى وقتنا الراهن نحو تحرير التجارة تحريراً كاملاً أمام السلع كافة، وتهدف عولمة التجارة إلى :- (٢)

١- فتح الأسواق على بعضها البعض.

٢- انتقال السلع بحرية تامة على المستوى العالمى.

---

١) آريف ديرليك، (الأمكنة فى مواجهة رأس المال)، ترجمة: فاطمة نصر، **مجلة سطور**، العدد ٣٩، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ص : ١٨، ١٩.

٢) عبد الخالق عبد الله، مرجع سابق، ص ص / ٧١، ٧٢.

٣- تعميق الروابط التجاريّة بين الدول.

٤- انكماش العالم تجاريّاً.

٥- تحقيق معدّلات استهلاك أكبر للسلع والماركات العالميّة.

٦- تعجيل النمو الاقتصادى العالمى.

٧- تعميم الرفاهية لجميع الشعوب، وهو الهدف النهائى لمؤسسات العولمة الاقتصاديّة.

وعلى هذا يصبح من السهل استنتاج أن العالم يتّجه نحو المزيد من الصراع الاقتصادى/ التجارى، فى ظلّ الفلسفة الرأسمالية الموحّدة، حيث يحل التنافس محل التعاون، أى أن التصوّر الأخير "المحتمل هو إعطاء العولمة دفعة جديدة لمبدأ انفراد الفائز بكل شئ *Winner take all*"[١]، حيث تتلاشى قدرات بقية الأعضاء (الأطراف)، ويكتمل تحوّلها إلى مجرّد أسواق مستوردة مستهلكة.

العالم يعيش بالفعل مجتمع الخمس المعولم منذ فترة طويلة، "إذ أن ٢٠ فى المائة من دول العالم هى أكثر الدول ثراءً، وتستحوذ على ٨٤,٧ فى المائة من مجموعة الناتج الإجمالى فى العالم، وعلى ٨٤,٢ فى المائة من التجارة الدوليّة ويمتلك سكانها ٨٥,٥ فى المائة من مجموع مدخرات العالم، ورافقت كل ذلك ظاهرة جديدة نعيشها اليوم هى أممية رأس المال[٢]

ففى ظلّ نظام السوق والبحث عن العائد الأعلى، سيطرت البورصات على الاقتصاد العالمى، وتحوّلت هياكل اقتصاديّة وطنيّة كثيرة إلى هياكل خدميّة ضعيفة متآكلة غير قادرة على الوقوف على قدميها لا على المنافسة العالميّة مع

١) جيفرى ساكس، (الاقتصاد الدولى وحل ألغاز العولمة)، ترجمة: دانيل عبد الله، **مجلة الثقافة العالميّة**، العدد ٨٨ الكويت، ١٩٩٨/٥، ص ٣٧.
٢) الجيب الجنحانى، مرجع سابق، ص ٢٤.

الهياكل الخدميّة المتقدّمة، وبرز دور الاقتصاد الخفى وتنامى بشكل مطّرد لدرجة أنه أصبح من الصعب الحصول على عقد أو إتمام صفقة أو الفوز بعطاء اقتصادى أو تجارى أو ... إلخ، دون تقديم الرشوة على المتسوى العالمى، داخلياً أو خارجياً (عبر القومى)، وباتت الدول المتقدّمة ذاتها تشكو من سيطرة الفساد على مقدّرات الحياة، كما أصبح بمقدور بعض الليبراليين الجدد كسب عشرات ومئات الملايين من الدولارات فى ثوان معدودة، فى الوقت نفسه الذى يموت فيه ملايين الأشخاص جوعاً وعرياً ومرضاً.

محاولة اقتراب من فكر المعولمين:

يدافع كل من جارى بيرتلز، وروبرت. ز. لورانس، وروبرت. إ. ليتان وروبرت. ج. شابيرو، يدافعون عن العولمة التجاريّة وعن أهميتها وحتميتها بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكيّة، وعلى الرغم من تميّز الولايات المتحدة بين الدول المتقدّمة وتمتّعها بمكانة خاصة، إلاّ أن دفاعهم جاء بطريقة تسهّل التعرّف على إيجابيات وسلبيات العولمة التجاريّة وتوضّح إمكانات الأخذ بآلياتها بالنسبة لكل الدول، وقد أوضحوا ثلاثة أسباب تعمل كقوى فاعلة وراء العولمة التجاريّة:- [1]

الأول : ارتباط الاقتصاد المحلّى/الأمريكى، على نحو متزايد باقتصاديّات البلدان الأخرى.

الثانى : انعدام سيطرة السياسيين على الأوضاع، وتحكّم رأس المال والتقدّم التكنولوجى فيها.

الثالث : زيادة الواردات، وزيادة الاستثمارات فى الخارج، وتصدير الوظائف خارج الدولة، والضغط الدولى التنازلى على أجور العمّال.

---

١) جارى بيرتلز، وآخرون ترجمة: كمال السيد، **جنون العولمة، تفنيد المخاوف من العولمة التجارية**، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مؤسسة الأهرام، سنة ١٩٩٩، ص ص : ١٢، ١٤.

وهم أيضاً الذين يوضّحون سلبيّات العولمة التجاريّة: [1]

- الانفتاح يعرّض العمّال وملاك الشركات لخطر مواجهة خسائر كبيرة، هى خسائر المنافسة عند دخول المنافسين الأجانب السوق الأمريكيّة (الوطنيّة).
- الانفتاح يفضى إلى فقد العمال لوظائفهم.
- الانفتاح يؤدّى إلى إجبار العمّال على قبول تخفيضات دائمة فى الأجور فى حالة استمرارهم فى وظائفهم، أو فى الوظائف الجديدة التى يلتحقون بها بعد تسريحهم.
- التجارة الحرّة قد تجبر العمّال غير المهرة وأشباه المهرة على قبول تخفيضات فى الأجور، كتأثيرات غير مباشرة لتحرير التجارة.
- عمليّات فقد الوظائف فى حدّ ذاتها تنزع إلى تخفيض أجور العمّال فى قطاع الخدمات وبعض الفئات المهرة.

ويرى جارى بيرتلز وزملاؤه أن هناك مبالغة فى تقدير حجم هذه الخسائر فى تقارير الوسائل الإعلاميّة وفى التصوّرات الشعبيّة، ويرون أنّه على الأمّة تقديم تعويضات أفضل لهؤلاء العمّال (الخاسرين)، وأن هذه التعويضات أمر يسهل تحمّله بالمقارنة مع المنافع العديدة التى تعود على الأمّة من تحرير التجارة، ذلك أن عملية تحرير التجارة مثلها مثل التقدّم التكنولوجى يخلق رابحين وخاسرين، ومن هؤلاء الرابحين: حملة الأسهم، المديرون، وعمّال شركات التصدير، وهناك ملايين يجنون مكاسب متواضعة ومن بينهم العمّال، وأرباب المعاشات، والفقراء

---

١) المرجع السابق، ص ص : ١٨، ١٩.

والعاطلون، الذين يستفيدون من الأسعار الأقلّ، ونخب أوسع وأفضل يستفيدون من المنتجات.[1]

العولمة الاجتماعيّة:

تثير العولمة فى بعدها الاجتماعى نفس الاختلاف الجدلى الذى تفجّره فى بقية الأبعاد: الاقتصاديّة والثقافيّة .. إلخ، على الرغم من اتفاق الفرق المتناحرة (المؤيّدة والمعارضة والتى تقف موقفاً وسطاً) على الآثار السلبيّة وعلى مدى خطورتها التى تصل حدّ تهديد أمن واستقرار بل واستمرار المجتمع، الكلّ يجمع على أن العولمة تفضى إلى ارتفاع نسب البطالة والفقر، وتهميش الغالبية العظمى من البشر، وزيادة سوء الأحوال المعيشيّة، واختفاء الطبقة الوسطى، وزيادة حدّة التفاوت الطبقى، ووضع المهمّشين موضع المقاومة (نفى النفى)، وإشتعال الصراع الاجتماعى والعرقى والدينى، واستشراء الفساد الكونى، بل وتمثّل هذه المسالب الاجتماعيّة خطراً كبيراً على العولمة نفسها أيضاً. فإغفال الدور الحيوى الذى يلعبه التوافق الاجتماعى فى توسيع السوق العالمى، وإهمال شبكات الضمان الإجتماعى وتركها تتآكل وتتلاشى يفضى إلى تآكل الإنفاق على السوق المفتوحة، ويزيد ضغوط الإجراءات الحمائية (الداعية لرفع الضرائب لحماية المنتج المحلى) [2]، ويتجسّد الخوف من انهيار مظّلات الرعاية الاجتماعيّة فى المطالب والتوصيات الدائمة المتوالية لكل المؤسّسات والهيئات الدوليّة والمحليّة بضرورة الحرص على التقدم الاجتماعى كفعل موازٍ للتقدم فى التنمية.

---

١) المرجع السابق، ص ص: ١٩، ٢٠.
٢) دانى رودريك، (المعقول وغير المعقول فى الجدل الدائر حول العولمة)، ترجمة: سعد زهران، **مجلة الثقافة العالمية**، العدد ٨٥، الكويت، ١٩٩٧/١١، ص ٩٧.

ويرى "فون هايك" أنّه من المستحيل الملاءمة بين فلسفة السوق وفلسفة تدخل الدولة فى الاقتصاد مهما كان هذا التدخّل محدوداً أو جزئيّاً، وليس هناك حلّ وسط بين السوق والاشتراكية [١]، فالحرّية الفردية هى مضمون الحضارة الغربية الناجمة عن ولادة الفرد ونمو الفردية، بينما تنتمى قيمتا العدالة والمساواة إلى الغرائز البدائيّة الموروثة، بل هما ضرب من ضروب البربرّية، وما كان للحضارة أن تقوم إلاّ بعد أن تخلّصت من هذه الغرائز عن طريق السوق (حاضنة الأفراد الأحرار)[٢]، فالسوق نظام "عفوى" أى حصيلة العمل والممارسة الإنسانيين، وليست صادرة عن تصميم إنسانى "عقلانية التخطيط الاقتصادى" [٣]، إن "لعبة السوق لعبة لا تقيم وزناً للعدالة ولا لتلبية احتياجات أو استحقاقات الأفراد، بل تدفع إلى العكس تماماً مما تدفع إليه العدالة التوزيعيّة، إنها تدفع كل لاعب من اللاعبين إلى تقديم أكبر رهان ممكن فيضاعف المبلغ الذى قد يحظى منه بحصة غير أكيدة من دوران دولاب السوق"[٤]، وعن طريق هذه المراهنات ومضاعفة الأموال تندفع الموارد الاقتصادية إلى تحقيق "المساهمة الفضلى" التى تزيد الإنتاج الذى يسمح بزيادة عدد السكان ويسمح أخيراً بتحقيق المجتمع المنفتح وحرّية الأفراد وهو مجتمع الازدهار الجديد الذى يرفض البرابرة (غير المتمدنين) فى أوساطه هؤلاء البرابرة الجدد هم ورثة غرائز العدالة التوزيعيّة، والمتحضّرون هم المدافعون عن قوى السوق. [٥]

---

١) فوّاز الطرابلسى، (هل يكون الكازينو الدولى بديلاً عن العدالة الاجتماعيّة؟ نقاش لأفكار "فون هايك" الليبراليّة) **مجلة النهج**، العدد ٢١، سوريا، دمشق، سنة ٢٠٠٠، ص ١٧٥.
٢) المرجع السابق، ص ١٧٧.
٣) المرجع السابق، ص ١٧٦.
٤، ٥) المرجع السابق، ص ١٨٠.

"لقد بات من الواضح أن العولمة قد أدّت إلى تعميق الفروق بين البلدان الصناعية الغنية والبلاد النامية الفقيرة، كما أنّها أدّت إلى تعميق الفروق داخل البلد الواحد باتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، كما أنّها هدّدت الأمن الاجتماعى والاقتصادى للإنسان العادى سواء فى البلدان الصناعيّة الغنية أو فى البلاد النامية، كما أنّها جعلت عالمنا أكثر عرضة للأزمات والاضطرابات"[1]، إنها تتجاهل تماماً مصالح الفقراء وتصبّ كل المكاسب للأغنياء والدول الصناعيّة والشركات المتعدّدة الجنسيّة، واستمرارية تهميش الفقراء كفيلة بوضعهم موضع التمرّد والانقلاب على سياسات التحرير والعولمة.

وتتركّز أسوء آثار للعولمة فى المجال الاجتماعى، فقد أثبت الواقع عجز الليبراليّة عن تحقيق نسب نمو عالية وعن القضاء على البطالة وعن تحسين أحوال المعيشة على عكس ما كان يزعم مرّوجو الفكر الليبرالى، بل أثبت الواقع أيضاً تراجع المكاسب الاجتماعيّة القديمة، فقد تدهورت القوّة الشرائيّة لكثير من الفئات الاجتماعيّة وازدادت معدلات الفقر والبطالة، وليس من قبيل المصادفة حشدّ كل هذا الجيش من المفكّرين الليبراليين وتكريس جهودهم لتهميش دور النقابات والقضاء على الحقوق والمكاسب النقابيّة، بل والتخلّص من الدستور الذى يكفل حقّ الإضراب بدعوى أن الإضراب لا يتماشى مع عصر العولمة لأنّه يسبب خسائر فادحة نتيجة فقد الشركات لمكانتها فى الأسواق [2].

لقد تناسى الذين يزعمون أن حرية السوق ستقضى على البطالة وتحقّق الازدهار الاجتماعى والاقتصادى، والعدالة الاجتماعيّة، نسى هؤلاء أن منطق

١) رمزى ذكى، (الطريق إلى سياتل، آثار العولمة وأوهام الجرى وراء السراب)، مرجع سابق، ص ٢٦.
٢) الحبيب الجنحانى، (ظاهرة العولمة .. الواقع والآفاق)، مرجع سابق، ص ٣٠.

السوق لا يقرَّ هذه المكاسب، وإنّما تقرّها وتفرضها القوى الشعبيّة المناضلة من أجلها، والتاريخ خير شاهد على صدق هذه المقولة. (١)

أمّا أبشع سلبيات العولمة الاجتماعيّة فهى القضاء على الطبقة الوسطى وهى الطبقة النشطة سياسيّاً واجتماعيّاً وثقافياً، وهى التى تتصدّى وتوقف مدّ تيارات التطرّف، وهى نواة المجتمع الصلبة، والسند القوى للدولة والقانون والمؤسّسات، وهى التى تقود حركات التحرّر الاجتماعى والوطنى وتدافع عن الحرّيات وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعيّة والديموقراطيّة، وهى التى تعادى الاستغلال والاحتكار وتحارب فوضى البروليتاريا، وتتحالف مع الهياكل المنظمة للطبقة العاملة، وقد باتت هذه الطبقة تضمر شيئاً فشيئاً بسرعات متزايدة وتتدحرج نحو قاع الفقر بسبب تدهور القوة الشرائيّة والتهديد المتواصل وفقدان العلم والبطالة. (٢)

لقد أفضت تجاوزات الرأسماليّة الكلاسيكيّة إلى ظهور حركات اجتماعيّة منظّمة قادتها طبقات ذات وعى اجتماعى وسياسى وثقافى كبير وتصدّت للفوضويّة وللأيديولوجيّة المتطرّفة، هذه الطبقات مكسب حقيقى للبشريّة ووقود نادر يحرّك إستراتيجيّات وآليات كبح وضبط جماح تيارات التطرّف الفكرى، وفى عصر العولمة تتزايد المخاوف من تنامى فعاليّات التطرّف واتساع دوائرها. (٣)

ونسف القاعدة الاقتصاديّة للطبقة الوسطى، وتدمير نمطها المعيشى يعنى وإلى حدّ كبير تدمير للدولة وللديمقراطيّة. (٤)

---

١) المرجع السابق، ص ٣١.
٢) المرجع السابق، ص ص : ٣٢، ٣٣.
٣، ٤)المرجع السابق، ص ٣٣.

فالعولمة الاجتماعيّة لا تعنى تدويل إنسانيّة الإنسان كما يروّج لها سدنة الرأسماليّة النفّاثة (تحسين الأحوال المعيشيّة، وتحقيق العدالة بإعادة توزيع الدخل القوى، والقضاء على البطالة والأزمات الحادة، وتحسين شبكات الرعاية الاجتماعيّة، و ... إلخ) بقدر ما تعنى تدويل الأزمات الرأسماليّة، بتصدير مشاكلها وأمراضها الاجتماعيّة عبر الحدود والقوميات، وفى حماية الشرعيّة الدوليّة المزعومة.

ويعتقد أنصار القرية الكونيّة الصغيرة أن. توتّرات العولمة توتّرات حقيقيّة، ولكنها "دقيقة" تحتاج إلى تأمّل عميق ونقاش أكثر ذكاءً، لأن ما يروّج عنها من مصطلحات مثل "منافسة الأجور المنخفضة" و"تمهيد الساحة للعب"، و"السباق نحو القاع"، مجرّد غطاء مضلل يفضى لعدم الفهم الحقيقى لهذه التوتّرات [1]، "فالعولمة ليست إلاّ جزءً من توجّه أوسع يمكن أن نسمّيه أعمال قوى السوق *Marketization* وليس تقليص الحكومات وإعادة النظر فى النظم والأعراف المجتمعيّة، وتخفيف الالتزامات الاجتماعية، ليست إلاّ العمليّات المحلّية المتممّة لعملية تضفير الاقتصادات القوميّة معاً". [2]

العولمة والدولة القوميّة:

تنقسم الآراء حول تأثيرات العولمة على الدولة القوميّة إلى قسمين:

الأوّل : (تآكل سلطة الدولة)

يرى أن تيارات العولمة تقلّص سلطات وصلاحيّات الدولة القوميّة و بشكل مستمّر ربّما يفضى إلى تلاشيها وامّحائها.

---

١) دانى رودريك، المرجع السابق، ص ١٠٠.
٢) المرجع السابق، ص ١٠٥.

الثانى : (تغيير مفهوم الدولة)

يرى أن تأثيرات العولمة لا تؤدّى إلى تقليص صلاحيّات الدولة القوميّة أو انكماش سلطاتها حتى درجة التلاشى، ولكنها تضعف سلطة الدولة القوميّة وتنتزع بعض صلاحياتها، فهى تعيد تشكيل مفهوم السلطة القوميّة وتغيّر صلاحياتها.

الأول : تآكل سلطة الدولة :

يعتقد أصحاب هذا التوجّه أن تعاظم فعاليّات العابر للقوميّات يزيد تآكل سلطات وصلاحيّات الدولة الوطنيّة، ولا يقتصر هذا على الدول الضعيفة أو دول العالم الثالث فقط، بل يشمل أيضاً الدول القويّة والمتقدّمة، والاختلاف الوحيد بينهما هو درجة هذا التآكل. فبينما تجد الدول الصناعيّة نفسها مطوّقة (مخنوقة) بشكل مطرد، تتمزّق الدول الضعيفة (المتخلفة) إرباً، فقد بات النظام الويستفالى *Westphalian system* أضعف بكثير فى نهاية القرن العشرين مما كان عليه فى بدايته، فقدرة الشركات المتعدّدة الجنسيّة وصلاحياتها أكبر من قدرة وسلطة الدولة، وقوى العولمة الاقتصاديّة تخلق ثقافة كونية متجانسة، وربما تفضى التغييرات الاقتصادية والبيئية إلى نهاية الدولة القوميّة تماماً وانتشار الفوضى الشاملة [1]، فتآكل السلطات القوميّة يتمّ بطريقتين، الأولى بفعل الذوبان فى الثقافة الكونية المتجانسة، والثانية برد الفعل المعاكس (الرفض والتحلل).

ويرى اتباع ماركس الجدد أن الرأسماليّة العابرة للقوميّات تعمل على إحلال الهويّة الثقافيّة محلّ الطبقة [2].

---

١) دانيل دريزنر، (يا عولميى العالم .. اتحدوا)، ترجمة: عبد السلام رضوان، **مجلة الثقافة العالمية**، العدد ٨٥، الكويت، ١٩٩٧/١١، ص ٤٠.

٢) دانيل دريزنر، (يا عولميى العالم .. اتحدوا)، المرجع السابق،ص ص : ٤٠، ٤١.

الثانى : إعادة تشكيل مفهوم الدولة:

يعتقد أصحاب هذا التوجّه أن العولمة لا تعنى إلغاء دور الدولة وإن كانت تعمل على إضعاف صلاحيّاتها وسلطاتها، فهى تعيد صياغة مفهومها وتعيد توجيه مساراتها، فالعولمة إعادة صياغة لوظيفة الدولة، وسوف "تظلّ الدولة القوميّة هى "اللاعبين الرئيسيين" فى شؤون العالم، يتشكّل سلوكها كما كان فى الماضى بالسعى نحو القوّة والثروة كما يتشكّل بانحيازاتها الثقافيّة، وبما هو مشترك وبما هو مختلف"[1]، "وبينما تظلّ الدولة هى "اللاعبين الرئيسيين" فى الشؤون العالميّة، فإنها تعانى أيضاً من فقدان فى السيادة والمهام والقوّة، فالمؤسّسات الدوليّة الآن تؤكّد حقّها فى الحكم على ما تفعله الدول داخل أراضيها و حقّها فى أن تقيّده، وفى بعض الحالات وفى أوروبا بالذات تقوم المؤسسات الدوليّة بمهام كانت فى الماضى من بين وظائف الدولة، كما نشأت بيروقراطيات دوليّة قويّة تعمل مباشرة بواسطة أفراد من بين المواطنين العاديين"[2]

١) صمويل هنتنجتون، مرجع سابق، ص ٣٩.
٢) المرجع السابق، ص ص : ٥٧، ٥٨.

العولمة بين الحداثة وما بعد الحداثة

يمتدّ تناقض العولمة والاختلاف حول كل ما يتعلّق بها من مجرّد محاولة تعريفها وحتى انتمائها الفلسفى، وإلى ما بعد هذا الانتماء أيضاً، فثمة اتجاه يرى أنّها أقرب إلى الحداثة *Modernism*، ويرى اتجاه آخر أنّها أقرب إلى ما بعد الحداثة *Post-Modernism*، ويؤكّد اتجاه ثالث أنّه قد تم الدمج التام بين العولمة وما بعد الحداثة الذى أفرز الحداثة الجديدة *Neo-Modernism*.

ماهية الحداثة:-

"يرتبط مفهوم الحداثة بدلالاته المختلفة والمتناقضة فى أغلب الكتابات ارتباطاً وثيقاً بعمليّة التحديث التى تحققت فى أوروبا، نتيجة لقيام النظام الاقطاعى وتعسّف الكنيسة الكاثوليكية وجمودها، فضلاً عن تبلور القوميّات وبروز حركة التنوير، وانفجار الثورة الفرنسيّة وما تلاها من ثورات وانتفاضات سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وثقافيّة تجاوزت حدود هذه الثورة بعد ذلك". [1]

وتصنف الحداثة دلالياً فى ثلاثة اتجاهات:- [2]

أوّلاً : الاتجاه الذى يقوم على المعرفة العقلانيّة العلميّة والموضوعيّة التاريخيّة ذات العمق الإنسانى والديمقراطى، أى الاتجاه الذى تلخّصه كلمة التنوير الكانطى.

ثانياً : الاتجاه الذى يقوم على الوضعيّة التكنولوجيّة الأدواتية النفعيّة بالمعنى الوضعى.

ثالثاً : الاتجاه الذى يقوم على إرادة القوة الفرديّة الاستعلائيّة بالمعنى النيتشوى.

١، ٢) محمود أمين العالم، (الحداثة المراوغة)، **مجلة سطور**، العدد ٤٢، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ١٤.

فلا يوجد للحداثة أى تعريف سوى هذه القطيعة الفلسفيّة (الفصل بين الطبيعة والمجتمع)، أى رفض الدمج بين المجالات المحكومة بقوانين الطبيعة (والتى تقوم على العلوم الطبيعيّة أن تكتشفها)، والمجالات التى تحكمها قوانين المجتمع (الإنسان صانع تاريخه) [١]

فالحداثة لا تنغلق فى نمط نهائى، بل هى – على العكس من ذلك – فى تطوّر دائم منفتح على المجهول الذى تتسع حدوده بصفة مستمرة صوب الأبعد الذى لا يمكن وصوله أبداً، فالحداثة لا نهاية لها، بيد أنها تأخذ أشكالاً متتابعة طبقاً لطبيعة التحديات التى تواجهها فى لحظات تاريخيّة معينّة. [٢]

وقد اتخذت الحداثة من المركزيّة الأوروبيّة أفقاً لها، وادعت أن لأوروبا خاصية داخلية أتاحت لها الارتقاء وميّزتها على الثقافات الأخرى، وهذا ما سمح لها بالانتشار العالمى. [٣]

ما بعد الحداثة:-

"إن الدعوة لقيم ما بعد الماديّة *Postmaterialist Values* أو ما بعد الحداثة *Postmodernity values* قد ظهرت أوّل مرّة فى الستينات على يد حركة الطلاب الذين كانوا أكثر الفئات تأثراً بالمادية، حيث تمرّدوا على قيم المجتمع وقاموا بالاحتجاج على وضعيتهم وعلى النظم العقلانيّة وأسس توزيع الأدوار فيها وبشّروا بقيم وأسس جديدة، قيم مجتمع ما بعد الصناعة *Post-Industrial Society* أو المجتمع الإعلامى، أو المجتمع الإلكترونى، وأعلنوا قطيعتهم مع القيم الحديثة العليا، ومع قيم التقدّم والعقلانيّة الخالصة، وبلوروا ثقافة مضادة (*Counter*

١، ٢) سمير أمين (تجاوز أم تطوير الحداثة)، **كتاب قضايا فكرية**، الكتاب التاسع والعشرون، القاهرة، سنة ١٩٩٩م ص ٢٠٨.

٣) إنريك داسل، (المقاومة مازالت ممكنة، النظام العالمى وحدود الحداثة)، ترجمة: فاطمة نصر، **مجلة سطور**، العدد ٤٢، القاهرة، سنة ٢٠٠٠م، ص ٥٩.

culture) إنسانيّة بالأساس، وتقوم على التأكيد الأعظم على قيم الحياة، و نوعيّة الحياة والإبداع والخيال وبالتالى على قيم الحريّة الإنسانيّة فى العمل والحياة الاجتماعيّة والشخصيّة والسياسيّة، ورغبتهم فى التعبير عن قيم قادرة على التكيّف مع المستجدّات، وخاصة التكنولوجيا التى اتخذوا موقفاً مضاداً وصارماً منها ومن استخداماتها".[1]

وبلورت دعوة هؤلاء الطلاب، " ثقافة وقيماً تقوم على الأمن النفسى والاجتماعى، والمشاركة الاجتماعيّة والسياسيّة فى اتخاذ القرارات، وعدم التعصّب من قبل الثقافة الغربيّة ضد الثقافة الأخرى، وبالتالى فقد أسّست حركة الشباب معايير وأسساً جديدة للفهم الإنسانى والاجتماعى والكونى، وكان من جرّاء ذلك أن ظهرت تداعيات كثيرة، لعل فى مقدّمتها ظهور قيم جديدة (ما بعد الماديّة)، أحدثت أنشقاقات فى الأوضاع السياسيّة، وتغيرّات فى المعايير التى يقيم بها الناس، وموضوعيّة الإحساس بالحياة الأفضل، وفوق كل ذلك فإن نشأة قيم ما بعد الماديّة قد كانت هى الجانب الأساسى من التغيّر القيمى والثقافى الذى أسهم فى إعادة تشكيل الاتجاهات الدينيّة والأدوار التى يقوم بها الإنسان، رجلاً وامرأة، والمعايير الثقافيّة المختلفة".[2]

إن الحداثة بدأت فى نهاية القرن الخامس عشر بمسيرة عصر النهضة (نهضة قبل حداثيّة)، ثم انتقلت إلى أسبانيا الحديثة وضمّت الهند/أمريكا، التى احتوت على أوّل (بربرى) كانت الحداثة فى حاجة إليه لتعريف نفسها.[3]

---

١) ضياء الدين زاهر، (القيم والمستقبل : دعوة للتأمل)، **دورية مستقبل التربية العربيّة**، العدد الثانى، القاهرة، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائيّة بالتعاون مع جامعة حلوان، سنة ١٩٩٥، ص ١٤.
٢) المرجع السابق، ص ص : ١٤، ١٥.
٣) إنريك داسل، المرجع السابق، ص، ٦٣.

وأزمة الحداثة فى نهاية القرن العشرين لا على لحظة اكتشافها (ويبر هابرماس، ليوتار، ويلش) ولكنّها تشتمل على اللحظات ذات الوصف الكوكبى للحداثة.[١]

لقد ارتبط خطاب ما بعد الحداثة والليبراليّة المعولمة مع تطوّرات النظام الرأسمالى، وانتقال هذا النظام الرأسمالى من مرحلة الازدهار إلى مرحلة الأزمة (الراهنة)، والدولة الوطنيّة، والتحديث فى العالم الثالث، وسقوط النظام السوفيتى، وأدّى انهيار دولة الرفاهيّة إلى عودة ظهور وتفاقم التفاوت فى توزيع الدخول، وتزايد انتشار البطالة والتهميش الاجتماعى والفقر، وأفضى هذا إلى انهيار أحلام الحداثة (السابقة)، فأخذت قيم الرأسماليّة الأوّلية (حرية التعاقد وحريّة المبادرة/ السوق)، تفرض نفسها على حساب القيم الأخرى، مثل العدالة الاجتماعيّة والمساواة التى كانت المحتوى التقدّمى لمشروع الرفاهية.[٢]

إن الليبراليّة المعولمة مشروع طوباوى هشّ غير قابل للاستمرار، وارتباط مشروع ما بعد الحداثة به يعنى رحيله هو أيضاً عاجلاً أو أجلاً.[٣]

لقد تمّ دمج خطاب الليبراليّة الجديدة دمجاً تاماً فى مشروع ما بعد الحداثة فى الولايات المتحدة، وأدّى هذا إلى ظهور مصطلح الحداثة الجديدة *Neo-Modernism* بدلاً من مصطلح ما بعد الحداثة *Post-Modernism*، أمّا أوروبا فلم يتمّ تعميم هذا النموذج حتى الآن، وليس من العدل إنكار إيجابيّات ما بعد الحداثة مثل :-[٤]

- الأفكار الجديدة.
- التسامح.

١، ٢) إنريك داسل، المرجع السابق، ص، ٦٣.
٣، ٤) سمير أمين، مرجع سابق، ص ص : ٢١٤، ٢١٥.

- التعدديّة الفكريّة.
- التعدديّة المذهبيّة.
- الحساسية النسبيّة.
- الرغبة فى مواجهة التحديات الكبرى، والتى أفضت إلى خلق مناخ مناسب للخوض فى مجالات جديدة كانت مجهولة أو تمّ التعامل معها فى حيّز ضئيل، وهذا أدّى بدوره إلى ابتكار مناهج جديدة لم تكن موجودة، وطرح فرضيّات ذات طابع طليعى سليم.

إلاّ أننا لا يجب أن نغفل أيضاً عن السلبيات الخطيرة لما بعد الحداثة منها :- [1]

- احتمالات إعادة ارتكاب أخطاء الماضى الناجمة عن سيطرة الخطابات الكبرى، وهو ما لا يشجّع على البحث عن نظريّات متماسكة تربط الأجزاء ببعضها البعض، فيبقى البحث مشتتاً فى ميادين لا تهتمّ ببناء الجسور بين الأفكار أو الأجزاء وبعضها البعض.
- الخجل النقدى الموجّه للاقتصاد السياسى المهيمن.

باختصار شديد يمكن إيجاز سلبيّات ما بعد الحداثة فى :- [2]

- تشتت الأطروحات.
- غياب الاهتمام بالتماسك العام.
- خجل النقد فى مواجهة المؤسّسات المسيطرة.

وهذه المسالب نجدها تظهر دائماً وتسود فى فترات الأزمات الكبرى وأجواء الاضطرابات التى تلازمها، هذا المناخ هو الذى يساعد على الانزلاق إلى

١) سمير أمين، المرجع السابق، ص : ٢١٤، ٢١٥.
٢) المرجع السابق، ص ص : ٢١٥، ٢١٦.

الرجعيّة الخطيرة كما يحدث الآن، وإذا كان البعض – مثل ليوتارد *Lyotard* فى محاولته لتبرير مشروعيّة التقوقع على الذات (عند الجماعات الأصوليّة) يرى أن الناس يجدون فيها الحماية من استبداد فكرة التحرر، فهذا نوع من التلاعب بالكلمات يقصد به فصل العقلانيّة عن التحرر، الأمر الذى يفضى إلى فتح الباب على مصراعيه أمام الرجعيّات المعادية أصلاً لفكرة التقدم والتحرر.

"إن مفهوم ما بعد الحداثة لا يعبّر عن بعدية زمنية وإنما بعد دلالية، أى مناقضة للحداثة، يكاد يربط مفهوم ما بعد الحداثة بالتطوّرات الأخيرة لنمط الإنتاج الرأسمالى فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتعميم هذا النمط عالمياً يشكل هيكلة العالم بمقتضى هذا النمط الإنتاجى بأبعاده السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وبتعبير آخر يرتبط مفهوم ما بعد الحداثة، بالعولمة الرأسماليّة التى تسعى لتنميط العالم تنميطاً شاملاً تحقيقاً لمصالح هذا النمط الرأسمالى السائد الذى يهيمن عليه عدد محدود من الدول الرأسماليّة الكبرى على رأسها الولايات المتحدة الأمريكيّة". (١)

ملحوظة:

من اللافت للأنظار والمحيّر للعقول والألباب تعرّض بعض علمائنا ومفكّرينا للإسلام بمناسبة وبدون مناسبة، والاجتراء على مقّدساته أو تشويه صورته على أقل تقدير، بدلاً من وقوفهم بعلمهم وفكرهم وآرائهم ضد أعداء الأسرة التى ولدوا وترعرعوا فيها، وشربوا من مائها وطعموا من خيرها، أو وقوفهم موقفاً محايداً على أقل تقدير، أليس هذا أحد حقوق المجتمع الذى يدافعون عنه (كما يزعمون)؟

١) محمود أمين العالم، (الحداثة المراوغة)، مرجع سابق، ص ١٦.

ها هو كاتب يتّخذ من المقولات الإيمانية والعقلية مادة للسخرية والاستهزاء يقول : إن العولمة توحّد العالم من خلال تدفق المعلومات، وإزالة الأسوار والحواجز أى أنها تخفف وطأة الدولة والجماعة وهى وطأة ثقيلة جداً تحاصر الفرد بالثابت والسائد ،فينزع للصمت أو الاستسلام ويكفّ عن المساءلة والاستفسار عن كل شئ حوله، وقد يتحوّل إلى آلة للرقابة والعقاب حين يدافع عن الأمّة وثوابتها وقيمها الخالدة ،فيتساوى اليسارى مع التراثى، وليصلح آخرنا بما صلح به أولنا ،وكلاهما يتفق مع أدوات الرقابة والعقاب. [1]

فقط نودّ أن نسأل، هل الدفاع عن الهوية أو عن الثابت والخالد أصبح جريمة أو عاراً أو أداة للعنف (الرقابة والعقاب)؟ وهل وحدانية الخالق الكريم عز وجل أو الإيمان بالرسل الكرام عليهم السلام، قيم ثابتة يجب أن تتغير وتتطوّر نزولاً على رغبة وأوامر الديانة العالميّة الجديدة (العولمة)؟ وهل ينهى الإيمان بالله العلى القدير عن التفكير فى خلقه وآياته؟ أو عن المساءلة والاستفسار. إن العولمة لا توحّد العالم، وإذا كانت تجعله قرية كونيّة صغيرة، فمن هو المستفيد، وهناك أربعة مليارات من سكان العالم لا يمتلكون تليفونات أصلاً [2]، حتى يستفيدو بالاتصال مع بقية سكان هذه القرية الكونيّة، وقد أشارت دراسات عديدة إلى أن نسبة تقترب من هذا العدد أيضاً لا تمتلك تليفزيونات حتى تستقبل إرسال الأقمار الصناعية، ومع فرضية التسليم بفكرة توحيد العالم اتصلاتياً أو تجارياً أو ... إلخ، فالركيزة الأساسية لعمليات التوحّد غير متحققة، بل وعلى العكس من ذلك، تفرز العولمة آثاراً مضادة لفكرة التوحّد على الأصعدة الثقافيّة كافة (التوجّه للداخل)، وهذا ما أشار إليه وأكّده معظم منظرى العولمة الجدد.

١) محمد بدوى، (تجديد الذهن العربى)، **مجلة سطور** العدد ٤٢، القاهرة، سنة ٢٠٠٠م، ص ٣٩.
٢) أحمد محمود صالح، (إنسان الأنترنت)، **مجلة سطور**، العدد ٤١، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ٢٠.

العولمة الثقافية :

فى الوقت الذى تتجه فيه الغالبية العظمى من دول العالم بسرعة مذهلة نحو الاندماج فى النظام الرأسمالى الاقتصادى المعولم تحت شعار حرية السوق وحرية التجارة وحرية رأس المال وحرية الاستثمار، فإنها فى اللحظة ذاتها تبدى تخوّفاً كبيراً وتحفظاً أكبر تجاه العولمة الثقافيّة، "فالعولمة الثقافيّة لم تتمكن بعد أن تجارى فى تجليّاتها الحياتيّة والسلوكيّة التطبيقات الماليّة والمؤسساتيّة للعولمة الاقتصاديّة، فلا يوجد نظام ثقافى عالمى كما يوجد نظام اقتصادى عالمى والعالم ليس موحداً ثقافياً كما هو موحد تجارياً ومالياً" [1]، "فالسائد فى الظنّ والشائع بين الناس، والمتواتر من خلال المسلّمات، والذى هو مستقّر فى النفوس حتى لحظتنا التاريخيّة هذه، بعيد عن الاستجابة لأشراط الواقع الكونى الجديد"[2]، على هذا المعنى تجمع الآراء كافة مع اختلاف درجات التوجّه بداية من استحالة تحقيق العولمة الثقافيّة، ونهاية بأنّها قطعت بالفعل شوطاً كبيراً على المستوى التطبيقى.

ولا تقتصر الاختلافات والتناقضات حول العولمة الثقافيّة تطبيقياً فقط، بل تمتدّ لتشمل تاريخ المصطلح، وتعريفه، وكل ما يتّصل به من قريب أو بعيد تبعاً لمدى فعالية الرؤية المرتكزة على محور الخلاف الرئيسى والمتمثّل فى الهويّة القوميّة، لابدّ لنا إذن أن نتعرض لمعنى الهويّة أوّلاً.

مفهوم الهوية:

الهويّة: "بنية فكريّة نفسية أخلاقية محدّدة، تنظّم الطاقات، وتضمن الإتّساق والانسجام، وترسّخ التكامل والنمو والاتزان". [3]

---

١) عبد الله عبد الخالق، مرجع سابق، ص ٧٤.
٢) عبد الوهاب المسدى، (العولمة والعولمة المضادة)، **كتاب سطور**، (٦)، القاهرة، سنة ١٩٩٩م.
٣) برهان زريق، (التطبيع يتماهى مع التطويع والتغريب والتفريق)، مرجع سابق، ص ٧١ عن:- نديم البيطار، المثقّفون والثورة، المجلس القومى للثقافة العربيّة، بيروت، سنة ١٩٨٧، ص ٣٢٥.

والهويّة: تعنى التماثل والتطابق والوحدة والاستمراريّة لعناصرها المنغلقة على علاماتها الفارقة التى تميّز هذه العناصر (الخصائص) عن غيرها. [١]

و"الهويّة معناها فى الأساس التفرّد، والهويّة الثقافيّة هى التفرّد الثقافى بكل ما يتضمّنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك وميل وقيم ونظرة إلى الكون والحياة" [٢]

والهويّة هى الذات [٣]، و هى " ما يعرّف الشئ فى ذاته دون اللجوء إلى عناصر خارجيّة لتعريفه، وتستعمل أيضاً للدلالة على الجوهر (وهو ما لا يندرج فى الحدوث، ولا تدخل فيه التغييرات الزمنيّة والعرضيّة)، والماهية". [٤]

و"الذات (الهويّة) قيمة محدّدة تحتاج إلى جهد مرتّب، ومسار معروف فتتحقّق، وكأن كل فرد يمكنه أن يحقّق ذاته إذا ما وصل إلى هذه المحطّة محطة (غاية) تحقيق الذات" [٥] *Self-Actualization* ، تبعاً لتفسير المدرسة الإنسانيّة الذى عارضته المدارس اللاحقة فى تأكيدها على معنى امتداد الذات *Self-Expansion* ، بمعنى أن الذات كيان يتجدّد باستمرار (دينامى)، وأن التحقّق يعنى الثبات (إستاتيكى) أو مغلق، مثل نظريّة المعرفة الإراديّة *Cognitive Volitional Theory* لـ "سيلفانو أريتى" التى يؤكّدها علم النفس التجاوزى (عبر الشخصى *Trans-Personal*) حيث تكون الهويّة (الذات/الشخصيّة) مجرّد مرحلة من مراحل النمو، أى أنّها ليست غاية، ولا يعتبر الإنسان راقياً أو سامياً إلاّ إذا تخطّاها إلى ما عبر الهويّة، أى أن الهويّة مجرّد هدف مرحلى مهمّ يجب تجاوزه. [٦]

---

١) إبراهيم محمود، (العولمة: هل هى انفجار الهوّية)، مرجع سابق، ص ١٦٤.
٢) جلال أمين، (العولمة)، مرجع سابق، ص : ٥٣.
٣، ٤) حيدر إبراهيم، (العولمة وجدل الهوّية الثقافية)، **مجلة عالم الفكر**، المجلد الثامن والعشرون، الكويت، سنة ١٩٩٩ ص : ١٠٤
٥، ٦) يحيى الرخاوى، (أكون أو أصير)، **مجلة سطور**، العدد ٣٩، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص : ٩.

والهويّة هى العناصر المميّزة للثقافة التى تتيح لها أن تحتلّ موقعها بين الثقافات [١]، و"الهويّة فى المنطق تشير إلى معنيين :- [٢]

١. التساوى أو التشابه المطلق بين كمّين أو كيفين، وهنا تعنى التوافق.
٢. أن يكون الشئ ثابتاً لا يتغيّر بما يعتريه أو ما يعترى ما يحيط به وهنا تعنى الثبوت.

والرأى الذى يذهب إلى أن الهويّة اطار ايديولوجى سياسى، ينفى وجود الهويّة الثابتة، ومن ثم تندرج تحت المفهوم الأيديولوجى السلبى، أى تصبح تزييفاً للوعى [٣]، "فالهويّة غير موجودة، ولكن تخلق وتشكّل اجتماعيّاً، فهى لا تعدو كونها ظاهرة اجتماعيّة أو إنسانيّة، مما ينزع عنها ذلك الطابع الميتافيزيقى الذى يضفى على الهويّة صفات متعالية على الوجود الملموس". [٤]

يعتقد البعض أن تحديد ملامح الهويّة أمر صعب على المستوى الواقعى، لذا ينظر إليها على أنّها مفهوم أيديولوجى أكثر منه مفهوم عملى، ويرى "بايار" أن الهويّة لا تخرج عن الإطار السياسى، لأن هناك علاقة وثيقة بين التصوّرات الثقافيّة والممارسات السياسيّة، وهو يرفض فكرة وجود السكّان الأصليين القطريين فالهوية عنده إطار أيديولوجى سياسى، و هناك إمكانيّات كثيرة للبحث عن أو للتعبير عن هذه الخصوصيّة فى أشكال مختلفة، كالدين أو اللغة، فالأمّة العربيّة على سبيل المثال فى الستينيّات كانت ترى أن خلاصها فى القوميّة العربية، أمّا الآن فهى ترى أن الإسلام هو الحل. [٥]

---

١) عبد الوهاب المسدى، (العولمة والعولمة المضادة)، مرجع سابق، ص : ٨٠.
٢) حيدر إبراهيم، (العولمة وجدل الهوية الثقافية)، **مجلة عالم الفكر**، المرجع السابق، ص : ١٠٤ عن:
يوسف الصديق: المفاهيم والألفاظ فى الفلسفة الحديثة، تونس، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٠ ص: ١١٥.
٣، ٤) المرجع السابق، ص ١٠٣.
٥) المرجع السابق، ص ١٠٣.

ويعرّف برنارد ماكجرين (*Bernard Mcgrene 1989*) الهويّة بأنها "النسق السلطوى لتأويل الاختلاف عن الآخر وتفسيره"، ويرى برنارد روبرتسون أن هذا التعريف مرّ بتغييرات عديدة، فكلّما أصبح العالم مضغوطاً أكثر تصبح إمكانية ممارسة الهويّة شراكة عالميّة باطراد متزايد، فالهويّة بمفهومها السلطوى تعبّر عن مرحلة ما قبل الصراع. (١)

ويعرف جيدنز الهويّة تحت ما يسميه بـ "مجتمع المخاطرة" بأنّها "الحياة بسلوك"حسابى تجاه الاحتمالات المفتوحة للفعل الإيجابى والسلبى الذى يواجهنا عالميّاً وكأفراد بطريقة مستمرّة فى وجودنا الاجتماعى المعاصر "*Giddens, 1991*" ومن وجهة نظر روبرتسون أن هذه الميول نحو ما يسمّيه جيدنز "بالحداثة العالميّة" لا ترتبط بسؤال الأسس الثقافيّة لممارسة الهويّة، وفى تقدير روبرتسون أن الثقافة مرتبطة ارتباطاً عضويّاً بالقوّة والمقاومة والتحرير، وهذا الارتباط هو الذى يمنح الثقافة فعاليتها (الممارسة/السياسة الثقافيّة)، ويطلق على هذا المعنى اسم النسبيّة، أمّا ما يطلق عليه عالميّة الثقافة فيعنى به إمكانيّة التحكم فى العالم ككل،وتحليله إلى الدرجة التى تسمح بتحديد ماله أهمية اجتماعيّة/ ثقافيّة/ سياسيّة من منظور النظام العالمى كلّه، وهذا لا يعنى حذف عناصر الهويّة فى سياق السياسات الثقافيّة. (٢)

دور الهويّة:

"الهويّة هى العامل الأساسى الذى يقوم عليه التمايز بين الأفراد والمجتمعات بعضها عن بعض، كما أنها هى التى تساعد الفرد على التوافق أو عدم التوافق مع الأوضاع المحيطة به، بحيث يتقبّل هذه الأوضاع ويتعايش معها أو يرفضها ويتمرّد

١) رونالد روبرتسون، مرجع سابق، ص ص : ٢١٤، ٢١٥.
٢) المرجع السابق، ص ص : ٢١٥، ٢١٦.

عليها، ويدخل فى تكوين هذه الهوية المميّزة للفرد والجماعة مقدّمات عرقيّة ولغويّة ودينيّة وتاريخيّة يشارك فيها كل أفراد المجتمع الواحد بشكل عام، وإن كانت استجاباتهم تختلف من شخص لآخر، مما يترتّب عليه ظهور الفوارق الشخصيّة بينهما، وهذا معناه أن الذى يحدّد ملامح الهويّة الثقافيّة ليس توافق تلك المقوّمات فى حدّ ذاتها وإنما اختلاف الاستجابات وما يرتبط به من تمايز الأفراد بعضهم عن بعض".[1]

ويختلف روبرتسون مع فالرشتاين (*Wallerstein, 1984*) فى تفسيره للعلاقة بين الخصوصيّة والكونيّة بعبقرية الرأسماليّة وتناقضها، فهو(أى روبرتسون) يرى أن الرأسماليّة تضخّم نهم لهضم ما هو كونى ومرتبط بما هو خاص فى اللحظة ذاتها، فالرأسماليّة مغلّفة بعلاقة خصوصيّة وكونيّة مطّردة ومحددة الموضوع فى إطار الصلة بين العرض العالمى (الكونى)، والطلب الخاص فالإنتاج الرأسمالى يتضمّن تفصيل سلع خاصة للأسواق الإقليميّة والإثنيّة والطبقيّة والنوعية المتخصصة وهو ما يسمى بـ (التسوّق المصغّر)، فالعلاقة بين الأسواق تتضمّن تداخلاً (تنافراً) مطرداً بين الثقافة والاقتصاد، وهو ما يختلف مع آراء جيمسون (*Jameson, 1984*)، الذى يرى أن توجيه مسارات إنتاج الثقافة يتمّ بفعل الرأسماليّة المتأخرة.[2]

ومن خلال استعراض هذه التعريفات وما يدور حولها من مفاهيم الذات الشخصيّة (الفرديّة/الجماعيّة، الوطنيّة/القوميّة)، بين الثبات و التغيّر أو الأصالة والتجدّد أوالتحقيق والامتداد،وبعيداً عن الخلافات حول ديناميكيّة أو إستاتيكيّة الهويّة، يمكن تعريفها على أنها الفروق الجذريّة التى تميّز كل أمّة (أو فئة) عن

١) أحمد أبو زيد، (الثبات الثقافى)، **مجلة سطور**، العدد ٤١، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ٣٧.
٢) رونالد روبرتسون، مرجع سابق، ص ص : ٢١٦، ٢١٧.

غيرها من الأمم (الفئات)، وتعمل على ترابط وتعاون وتكامل هذه الأمّة، وتفسّر وتوجّه حياتها (الحركة/النمو/التطوّر)، فهى بهذا ديناميكيّة وإستيتاتيكيّة فى اللحظة عينها.

الهويّة إذن هى بنية ثقافيّة مميزة وموجّهة ومفسّرة للنمط المعيشى للأمّة (الجماعة)، ولتطوّره.

والعولمة الثقافيّة تعنى حريّة انتقال الأفكار والمبادئ والقيم والمعتقدات وكل العناصر الثقافيّة (المحلّية/الإقليميّة)، عبر القوميّات دون قيد أو شرط، أى أنّها تهدف إلى خلق ثقافة عالميّة موحّدة (عبر جغرافيّة)، فهى عمليّة "إلغاء نطاق سيادة الثقافة الموروثة فى هذا المجتمع أو ذاك، بحيث يصبح توجّه الأفراد والجماعات من المحلّى إلى العالمى" [1]، وهى بهذا المعنى عملة ذات وجهين:

الأوّل:مثالى غائب(غير متحقّق)يكفل لكل الثقافات البشرية حرية الانتقال عبر القومى.

والثانى : استغلالى (متزايد التحقّق) يعبّر عن الصيغ المتطوّرة لما بعد الاستعمار الثقافى، فعبر القوميّة *Trans-Nationalism* هى المرادف الحديث للهيمنة لأنّها تدويل الثقافة الغربيّة (الطرف الأقوى)، على حساب بقيّة الثقافات.

وتنقسم الآراء حول العولمة الثقافيّة إلى ثلاثة أقسام، بين مؤيّد ومعارض وواقف موقف الوسط.

أوّلاً : الآراء المعارضة:

تجمع هذه الآراء على أن العولمة الثقافيّة، كغيرها من الأبعاد الحياتيّة المعولمة سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعيّاً، ما هى إلاّ مرحلة استعماريّة جديدة، فهى عبارة عن تعزيز وتطوير للهيمنة الرأسماليّة.

---

١) محمد فايز الطراونة، (ضيوف غير مدعوين والتمّيع الثقافى)، مرجع سابق، ص : ١٩٩ .

"فقد هجمت السياسة مدعومة بسلطة الاقتصاد التى من ورائها سلطة المال على الشأن الثقافى، فأناخ النظام العالمى الجديد بكل أثقاله على آليّات الفكر وكثير من مرجعيّات المعرفة، واحتشد فى ذلك - طوعاً أو على غير ميعاد - آلة الإعلام الغزير متعدّد الأصوات ومتكاثر المرايا، فتحقّق له نصر خفى لا يضاهيه فى الخطورة والسلطان لا نصر السلاح ولا نصر المال : إنّه التحكّم فى القدرة الإدراكيّة لدى الإنسان بعد تقليص هامش الحريّة فى تحليل الخطاب أو فى تفسيره، فضلاً عن تأويله، أمّا نقده فتكاد تضيق الأنفاس عن التطاول عليه، إنه سلاح الخطاب فى الثقافة المتولّدة عن عولمة النظام الكونى الجديد، وإننا لعلى أبواب فجر جديد تذوب فيه "آليات التلقّى" إلى حدّ الامّحاء، وتعلو مكانها "آليات الحقن" فيتحوّل فعل الفاعل إلى انفعال المفعول"[1]، "إن ميزانيّة صناعة الدعاية والإشهار فى الولايات المتحدة الأمريكيّة وحدها، مائتين وخمسين مليارا من الدولارات، هكذا انتصرت ثقافة شركات "والت ديزنى" و "ماكدونالدز" عبر الإشهار الدولى، وأصبحت الأفكار مثل السلع ترتدى جلباباً موحّداً، واقتلعت الأطباق المستقبلة لما ترسله الأقمار الصناعيّة من صور وإشارات ملايين البشر من بيئتهم الحضاريّة ومن أنماط عيشهم، ليصبحوا يحلمون باللحاق بمستوى أثرياء الأرخبيل العالمى الجديد" [2].

على هذا فالعولمة تعنى المزيد من الهيمنة، باستكمال سيطرة الغرب على المؤسّسات الدوليّة، وفرض القيم الليبراليّة على العالم النامى سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً وثقافيّاً، "إنّها عملية القضاء على الهويّات القوميّة والوطنيّة لا عن طريق

١) عبد الوهاب المسدى، مرجع سابق، ص : ٣٤٢.
٢) الحبيب الجنحانى، مرجع سابق، ص ٢٥.

القوّة أو الفرديّة وحدهما، ولكن أيضاً عن طريق جعل أبناء العالم النامى يقبلون على الثقافات الغازيّة" [1]، ثقافات الكولا، والجينز، وماكدونالدز، وكنتاكى

لقد أثّرت التكنولوجيا الحديثة على وعى الأفراد، وألغت عقولهم وحوّلتهم إلى مستهلكين مستسلمين، وأثّرت على ثقافات الأمم وأجبرتها على التنازل عن جزء كبير من استقلالها وخصوصيّاتها، فقد انتشرت نمطيّة الإنتاج والتوزيع والاستهلاك عبر العالم كلّه، وأصبح من الصعب على المرء أن يميّز إذا كان يعيش فى القاهرة أو بانكوك أو روما أو مدريد، فهو يأكل من ماكدونالدز ويركب سيارة غربيّة، ويشاهد مسلسلات "دالاس" و "تيتانيك"، ويتابع الأخبار عن طريق الـ C.N.N، لقد ساهمت التكنولوجيا الحديثة فى طمس الهويّات الثقافيّة تحت شعار : رفاهية الإنسان، والتنمية الاقتصاديّة [2].

إن المشابهة والمشاكلة (أى التماثل بمعنى إنتاج السلوك المشابه لمصدر التأثير "المجتمع/السلطة") على المستوى الظاهرى تفضى إلى تماثل باطنى، وهى من الأمور المذمومة دينيّاً فى الكتاب الكريم والسنة المطّهرة [3]، والعولمة مسؤولة عن تعاظم شأن قيم الفساد وزيادة انتشارها عالميّاً (كوكبيّاً).

"لم يعد الحكم الاستبدادى للمرّة الأولى على مدى ستة عقود يشكّل تهديداً دوليّاً، فمخاطر يومنا هذا تنبع من التجارب غير المشروعة فى المواد البيولوجيّة والكيماوية والنوويّة، والجريمة المنظّمة دوليّاً، وتجارة المخدّرات

١) على أحمد مذكور، (العولمة والتحديات التربويّة)، مرجع سابق، ص : ١٦.
٢) جلال أمين، (العولمة)، مرجع سابق، ص ص : ٥٩، ٦٠.
٣) محمد آل محزون، (آليّات التبعيّة)، **مجلة المنار الجديد**، العدد (٩)، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص : ١٠٨.

وعمليّات الإرهاب، والرشوة عبر القوميّة" [١]، فبعد سقوط الحواجز التجاريّة تحوّلت الولايات المتحدة إلى مركز عالمى نشط لتنظيم وتصدير الجريمة عبر القوميّة، كما نجحت أيضاً فى تحويل دول أخرى كثيرة إلى دول مصدّرة للجريمة، مثل روسيا، والصين، وكولومبيا، والمكسيك. [٢]

إن العولمة سياسة إمبرياليّة أمريكيّة تهدف للقضاء على إرادة التحرّر الوطنى، واقتلاع جذور الهوية الثقافيّة (القوميّة - الدينيّة)، والقضاء على طموحات قوى المجتمع العاملة والمنتجة [٣]، فهى تعمل على إعادة تبيئ (التبيئة) العالم الثالث والثانى لإحلال الثقافة الغربيّة محل الثقافة الوطنيّة تحت مسمى الثقافة العالميّة. تسهيلاً لمهمة الفاعل عبر القومى حتى يجد مناخاً أليفاً يمكنه أن يعيش فيه بأمان [٤]، بعيداً عن الخطر والتوتّر.

ثانياً: الآراء المؤيّدة :

وتعتمد على مجموعة من الافتراضات منها:-

١) إن الثقافات الكبرى (العالميّة) تحمل فى ذاتها (طبيعتها) استعدادات الانتشار العالمى، أى الميل للعولمة والتعولم، مثل الأديان والأيديولوجيّات فالأفكار والقيم والمفاهيم والقناعات تحمل فى أحشائها دائماً بذور التعولم، بمعنى الاستعداد للانتشار الحرّ بدون قيود، والتوسّع، والانتقال عبر القومى. [٥]

١، ٢) روبرت. س. ليكن، (وباء الفساد الكونى) ، ترجمة : شهرت العالم، **مجلة الثقافة العالمية**، العدد ٨٥، الكويت ١٩٩٧/١١، ص : ١٠٨.

٣) محمد عبد الشفيع عيسى، (رؤية إلى المستقبل العربى، من التحديث إلى استئناف التطوّر الحضارى)، **العولمة والتحوّلات المجتمعيّة فى الوطن العربى**، مرجع سابق، ص : ١٧٣.

٤) محمد محمود الإمام، (الظاهرة الاستعمارية الجديدة ومغزاها بالنسبة للوطن العربى)، **العولمة والتحوّلات المجتمعيّة فى الوطن العربى**، مرجع سابق، ص ص : ٩٣، ٩٤.

٥) عبد الخالق عبد الله، مرجع سابق، ص : ٧٥.

٢) إن العولمة الثقافيّة لا تعنى القضاء على الهويّات/الخصوصيّات، كما أن الهويّات ليست جامدة أو ثابتة (إستاتيكيّة)، وإنّما هى متطوّرة وممتدة (ديناميّة)، فهى لا تعنى الانغلاق على الذات، بل تعنى الانفتاح على الآخر

٣) إن الثقافة كائن عضوى دينامى، يولد من احترام منظومة القيم والعادات والتقاليد والمبادئ والأفكار، وهذه المنظومة هى إرث المنتصرين وأبناء السوق، فالقيم والمبادئ والأفكار والمفاهيم والاستعدادات منتقاة، وهى رموز حيّة متفرّقة ترتحل وتتغيّر عبر السنين[١]، أى ليست موروثة.

٤) المصلحة الذاتيّة وضغوطها، "فليس هناك شعب حرّ سيتخلّى عن حقّه فى تقرير المصير، بيد أنّه، فى بعض الأوقات تجد البلدان أنّه مّما يتّفق مع مصلحتها الذاتيّة الرشيدة، أن تخضع قرارات جارية لقيد خارجى". [٢]

٥) المصير البشرى الواحد، والهدف المشترك، فقد آن الأوان لكى تنظر الإنسانيّة إلى نفسها نظرة متكاملة ككائن واحد يتهدّده خطر واحد "فالإنسانيّة ستتعوّد النظر إلى ذاتها ككتلة واحدة ذات مصير واحد وبقاء واحد وفناء واحد، وتشترك مع بعضها البعض فى قيم عميقة تتخطّى كل الخصوصيّات الحضاريّة والثقافيّة". [٣]

وتنطلق وجهات النظر المدافعة عن العولمة الثقافيّة من رفض مقولة أن عولمة العالم ثقافيّاً ستقضى على الخصوصيّات الثقافيّة (الهويّات)، وترى أن كل ما سوف يحدث هو عمليّات ترشيح وغربلة وتنقية للثقافات الوطنية. فالعولمة سوف تقتلع جذور العناصر الثقافيّة التخريبيّة (الأوجه الإقاصائيّة *Exclusionary*

١) ديفيد رثكوبف، مرجع سابق، ص : ٢٧.
٢) جارى بيرتلس، وآخرون، جنون العولمة، ترجمة: كمال السيد، مرجع سابق، ص : ١٥٢.
٣) عبد الخالق عبد الله، مرجع سابق، ص : ٧٧.

للمعتقدات، واللغة، والقناعات السياسيّة/الأيديولوجيّة)، فالمجتمعات الناجحة هى التى تتحوّل إلى بيئة صالحة للتنوّع الثقافى *Multi-Culturalism* ، مثل الولايات المتحدة وأوروبا وجنوب أفريقيا والهند، فعنصر التسامح ذات أهمية كبيرة فى تحقيق الرفاهية الاجتماعيّة [١].

والعولمة لا تعمل على تقليص أو تآكل سلطة الدولة، ولكنّها تغيّر إستراتيجيتها وتعيد توجيه قدراتها ومساراتها [٢]، أى أنّها تعيد تعريف الدولة وكثافة التغيرّات عبر القوميّة ماليّاً وتجاريّاً واقتصاديّاً، تعمل على امحاء وتلاشى الإحساس بالهويّة القوميّة (المحليّة/الإقليميّة)، وتزيد الشعور والرغبة و التشبّث بالهويّة العالميّة الجديدة (الكوزموبوليتانيّة/المواطنة العالميّة).

فالعولمة الاقتصاديّة التى كانت سبباً من قبل فى قيام وتقوية الكيان الوطنى (المحلّى/الإقليمى)، هى نفسها التى تعمل اليوم ضد هذا الوطنى (الداخلى) من أجل العالمى (الخارجى)، أمّا ما يضعف سلطة الدولة فهو الضغوط الواقعة عليها من ردود الفعل المضادة للعولمة من ناحية، وأثر العولمة التجزيئى من ناحية أخرى، فالعولمة تفتت استقلاليّة الدولة بإجماع الآراء، غير أن الهوية الثقافيّة تبقى أقوى من كل الهويّات، الأخرى (الاقتصاديّة أو السياسيّة، أو ... إلخ)، أى أنّها لم تعد تتناغم أو تتناسق مع حدود الدولة القائمة بالفعل[٣]، فقوى السوق تعمل على إضعاف الدولة وضمور سلطاتها وتقليص صلاحياتها وتكوين ثقافة كونيّة متجانسة وتهميش الوطنى العاطفى [٤].

---

١) ديفيد رثكوبف، مرجع سابق، ص : ٢٩.
٢) دانييل دريزنر، مرجع سابق ، ص ص : ٤١، ٤٣.
٣) المرجع السابق، ص ٤٥.
٤) المرجع السابق، ص : ٥٣.

إن العولمة الثقافيّة: عبر نماذج كنتاكى وماكدونالدز والكولا، وعبر الاجتياح الكثيف المتقدّم والتكنولوجيا الحديثة(المحرّك التوربينى للعولمة)، تخلّص الشعوب من مشكلاتها المزمنة (الفقر، الجهل، المرض، .. إلخ)، وتزيد وتؤكّد فرص السلام والرفاهية، وتقضى على احتمالات الحروب، وتزرع فى النفوس حب الآخرين وروح التنافس/ الحياة، وتمحى الشعور التخريبى المنغلق/الدمار (عشق الأرض /الهويّة / التراث / التقاليد / القيم / الأصالة / .. إلخ). [1]

فالعولمة خطاب تبشيرى بعموميّة الرخاء والمساواة بين البشر، الأغنياء والفقراء، الشمال والجنوب، الشرق والغرب، من خلال الفعاليّات والإنجازات التكنولوجيّة للقرية الكونية الجديدة، وهى تفرض ضرورة السعى للتقدّم والرقىّ والازدهار عبر تذويب الفوارق الثقافيّة (الهويّات)، والانتماء للثقافة العالميّة الجديدة، فى حين أن التمسّك بالجذور (الهويّة)، والاحتماء خلف الأسوار الحمائيّة (الخصوصيّات)، يدفع للتخلّف والاندثار. [2]

إن مقاربات العولمة تنطلق من الضغوط المتزايدة لتحويل العالم كلّه إلى حيّز واحد، والتحوّل من الخصوصيّة الأصوليّة التى هى تعبير عن الهويّة المجتمعيّة إلى الخصوصيّة العميقة (الكونيّة)، والارتكاز على النظر إلى الأصوليّة على أنّها رد فعل أو مقاومة للعولمة أكثر من كونها خلقاً أو مظهراً، ثم اعتبارها جزءً من عمليّات التعولم، فالبروزات القوميّة تفرض سبيلاً محدداً نسبياً للعولمة، فالعالم فى طريقه إلى أن يصبح عالماً واحداً، أى أنّه معولم فى بعض المستويات فقط. [3]

---

١) صلاح قنصوة (السيارة ليكساس تقتلع شجرة الزيتون، مانيفستو جديد للداروينيّة الأمريكيّة) **مجلة الهلال**، القاهرة فبراير سنة ٢٠٠٠، ص ص : ٨، ١٩.

٢) محمود عبد الفضيل، (تسويق و"تزويق" العولمة، مراجعة نقدية لكتاب توماس فرايدمان : السيارة ليكساس وشجرة الزيتون) **مجلة الهلال**، القاهرة، فبراير/٢٠٠٠، ص ص : ٢٠، ٢١.

٣) رونالد روبرتسون، مرجع سابق، ص ص : ٣٥٢، ٣٥٣.

انضغاط المسافات زمانيّاً ومكانيّاً، وسقوط الحواجز- وزيادة الإحساس بوحدة العالم وبالمصير الواحد للبشريّة فى ظلّ التهديدات الموحّدة (التدهور البيئى الكوارث النوويّة، الإيدز، ...إلخ)، واستعمار العالم الخارجى(الكوكبى) للمحلّى الداخلى (الوطنى/القومى)، كل هذا يحطّم الأطر المرجعيّة، ويحوّل الثقافات والأيديولوجيّا إلى مفاهيم نسبيّة، ويعيد تشكيل وتعريف الدولة الحديثة، فالعولمة تعنى بالتحوّل مما هو آلى إلى ما هو عضوى، ومما هو اقطاعى إلى ما هو رأسمالى ومما هو محلّى إلى ما هو عالمى. [1]

ثالثاً : الآراء المحايدة :

يرى أصحاب هذا التوجّه أنّه من الخطأ رفض العولمة رفضاً تاماً وإغماض العين أو سدّ الأذن عمّا يحدث فى العالم الخارجى، ويرون أيضاً أنّه من الخطأ تأييد العولمة والتعولم تأييداً مطلقاً والانسياق الأعمى وراء التغيرّات العالميّة ويفضّلون التأنّى لدراسة الظاهرة على أمل الاستفادة من إيجابيّاتها وتجنّب سلبياتها بقدر المستطاع.

ويفضّل البعض تعديل مسارات التعولم من العولمة إلى الوطننة. ويقصد بها تعظيم قدرات المحلّى/الوطنى، لاستيعاب العالمى والاستفادة من إيجابيّاته، أى أن المطلوب هو تصحيح العولمة إلى عالميّة (كوكبيّة)، بمعنى عالميّة المصالح، فالوطننة أداة لتصحيح العولمة.[2]

فالعولمة كلحظة تاريخية ممتدّة تمثّل نقلة حضارية للبشريّة ككل وتتجاوز كل خطط الهيمنة التى أعدّها خبراء ومهندسو العولمة الرأسماليّون

---

١) المرجع السابق، ص ص : ١٩٠، ١٩١.

٢) محمد رؤوف حامد، (الوطنيّة فى مواجهة العولمة)، **سلسلة اقرأ**، العدد ٦٤٧، القاهرة، دار المعارف، سنة ١٩٩٩م ص ص : ٢٨، ٣٥.

فإطلاق حكم نهائى على العولمة يكشف عن تعجّل فى إصدار الأحكام وعدم التأمل وعدم القدرة على وضع الأمور فى سياقاتها التاريخيّة، فالعولمة سوف تتخطى شروط نشأتها إلى المحيط العالمى كلّه، وتنتقل بالإنسانيّة إلى آفاق عليا من التطوّر الفكرى والعلمى والتكنولوجى والسياسى والاجتماعى، وسوف تفوق آثارها الإيجابيّة كل توقّعات مهندسى الهيمنة الأمريكيّة والغربيّة، فالمواجهة لا يجب أن تكون مع العولمة كعمليّة تاريخيّة، بل يجب أن تكون ضد نسق القيم السائد الذى يهدف إلى إعادة إنتاج علاقات الهيمنة القديمة. (١)

إن أحداً لا يستطيع أن يفلت من اللحظة التاريخيّة التى يعيشها، وفى الحقيقة أن رفض النظام الرأسمالى (أى رفض العولمة)، ما هو إلاّ مرحلة حاسمة من مراحل تطوّره الطويلة، بغض النظر عن منطلقات هذا الرفض (٢)، ثقافيّة كانت أم دينيّة أم أيديولوجيّة. ومردّ الاختلاف الأساسى حول العولمة يرجع إلى الثقافة الكونيّة أو الخصوصيّة الكونيّة التى تعدّ تهديداً للهويّات القوميّة، ويجب أن يقابل هذا التهديد بنقد صارم للدفاع عن البصمة الثقافيّة المتفردة، فى إطار الوعى بأن الخصوصيات الثقافيّة لا تنفى القاسم الثقافى المشترك بين البشر. (٣)

تاريخيّاً، التقت الثقافات المختلفة كثيراً، وتأثّرت واستعارت من بعضها البعض إلاّ أنّها لم تفقد خصوصيّاتها حتى تحت ضغوط العهود الاستعماريّة الكبرى، غير أن الأمر يختلف هذه المرّة فى عصرنا الحديث من حيث الأساليب والوسائل والنتائج فى ظل حصار الهيمنة، وضغوط ثورة الاتصالات والمعلومات

١) السيد ياسين، **الزمن العربى والمستقبل العالمى**، القاهرة، دار المستقبل العربى، سنة ١٩٩٨، ص ص : ٧٤، ٧٥.
٢) السيد ياسين، **العولمة والطريق الثالث**، القاهرة، ميريت للنشر والمعلومات، سنة ١٩٩٩، ص ص : ٣٥، ٣٦.
٣) المرجع السابق، ص ص " ٣٩، ٤١.

لدرجة ترجّح كفة الصراعات الثقافيّة مستقبلاً [1]، فالعولمة ظاهرة تفرض نفسها بقوّة على الواقع العالمى، ولا يستطيع أحد أن يتجنّبها، بيد أنّه بالإمكان تفادى سلبيّاتها. [2]

عولمة الثقافة وثقافة العولمة :

المقصود بالعولمة الثقافيّة هو إلغاء الحواجز والمسافات الجيو – ثقافيّة زمانياً ومكانياً، وإزالة السدود والحدود القوميّة التى تعوق انتقال الآراء والأفكار والمعلومات والقيم والمعتقدات بحريّة تامة، وبما يعنى إتاحة نفس الفرصة أمام جميع الثقافات البشريّة، فى حين أن ما يحدث على أرض الواقع المعيش غير ذلك، فما يحدث ومنذ زمن بعيد هو إتاحة فرصة الحريّة الكاملة للتحرّك والانتقال (التأثير فى الآخر)، بالنسبة لثقافة واحدة فقط، والعمد والقصد فى فرض هذه الثقافة المسيطرة ومحاربة من أو ما يعوق حركتها أو يتصدّى لها، وهى ثقافة الغرب *Western Culture*، والنموذج الأمريكى منها على وجه الخصوص، ليس لأنّها الأفضل ولكن باعتبارها الأكثر امتلاكاً لعوامل الانتشار.

فالصادرات الثقافيّة الأمريكيّة تحتلّ المرتبة الثانية فى برامج التصدير الأمريكى بعد الطائرات [3]، فإذا نظرنا إلى الطائرات على أنّها إحدى آليات الاتصال والنقل يتّضح أن هذه الصادرات الثقافيّة تحتلّ المتربة الأولى، وإن أظهرت الإحصاءات غير هذا، ولا تقتصر هذه الصادرات على العالم الثالث وحده كما أشرنا من قبل، بل تجتاح العالم الأوّل والثانى بصورة عامة أيضاً، وليس هناك من ينازع الولايات المتحدة على هذه المكانة، فعلى سبيل المثال: صدّرت أمريكا لدول

---

١) مصطفى عمر التير، (الهيمنة الثقافيّة الغربيّة والتعليم العالى فى الوطن العربى فى ظلّ العولمة)، **مجلة الفكر العربى** العدد العشرون (٣)، لبنان، بيروت، سنة ١٩٩٩، ص ص : ١٣، ١٤.

٢) المرجع السابق، ص ٧.

٣) محمد شومان، (عولمة الإعلام، ومستقبل النظام الإعلامى العربى)، **مجلة عالم الفكر**، المجلّد الثامن والعشرون العدد الثانى، الكويت، سنة ١٩٩٩، ص ١٦٣.

الاتحاد الأوروبى فى عام ١٩٩٢م وحدها أفلاماً (فقط) قيمتها ٣,٧ مليار دولار [١] والدول الأوروبيّة تعيد إذاعة وبثّ ما نسبته ٥٠٪ من البرامج الأمريكيّة المختلفة المسلسلات والعروض الفنيّة والثقافيّة و الاجتماعيّة والرياضيّة، على حين أن المنتجات الثقافيّة الأوروبيّة لا تشغل أكثر من ٣٪ من السوق الأمريكيّة [٢]، فسوق "الراديو والتليفزيون" فقط فى الولايات المتحدة قدّر رأس مالها بـ ٥٠ مليار دولار فى عام ١٩٩٥م، حققت أرباحاً قدرها ١٥ مليار دولار فى العشرة أشهر الأولى من العام نفسه [٣].

إن العالم كلّه يشكو منذ فترة طويلة من تأثيرات الهيمنة الثقافيّة الأمريكيّة، فقد أصبحت الثقافة الأمريكيّة تؤثّر بالفعل فى تحديد أذواق و توجّهات حياة الشعوب، وقد قامت كل من فرنسا وكندا بإصدار قوانين تمنع نقل المواد الثقافيّة الأمريكيّة من الأقمار الصناعيّة عبر الحدود أو عبر البيوت كما أن الصين وسنغافورة وإيران يحاولون وبقوّة منع وصول برامج الكومبيوتر الأمريكية إلى المواطنين، ويضعون قيوداً غليظة على استخدامها، وقد ألغت سنغافورة عدداً من برامج الإنترنت، منها الصور والبرامج الإباحيّة، وكوّنت الصين "مجموعة قياديّة مركزيّة تحجب من البرامج أكثر مما تتيح [٤].

وفى ضوء الاهتمام الأمريكى غير العادى بتطوير الصناعات الثقافيّة وإنفاق مبالغ مهولة على هذا الميدان - من أجل تأسيس الشبكة الكونيّة للشبكات. *"Global Net works Network of* التى أطلقت عليها إدارة "بيل كلينتون" البنية الأساسيّة الكونيّة للمعلومات *Global Information In Frastrcurcture*، يبدو أن الرأسماليّة

١) محمد شومان، (عولمة الإعلام، ومستقبل النظام الإعلامى العربى)، **مجلة عالم الفكر**، المجلّد الثامن والعشرون العدد الثانى، الكويت، سنة ١٩٩٩، ص ١٦٣.
٢) مصطفى رجب، (العلاقة بين الإعلام والعولمة)، مرجع سابق.
٣) محمد شومان، المرجع السابق، ص ١٦٣.
٤) ديفيد رثكوف، (فى مدير الإمبرياليّة الثقافيّة)، مرجع سابق، ص ص : ٣٠، ٣١.

المتوحّشة (الرأسماليّة/النفّاثة/التوربينيّة/الأمريكيّة) تعمل على تحويّل السوق العالمى إلى سوق معلوماتى *Infra-sphere*، وهذا يفسّر أسباب توجّه العديد من القوى العالمية إلى تطوير صناعاتها الثقافية وإنفاق مبالغ طائلة من أجل هذا الهدف. فمن المتوقّع أن تصل الاستثمارات فى مجال المعلومات والاتصالات فى أمريكا اللاتينيّة إلى ما يجاوز المائة والخمسين بليون دولار، وسوف تنفق الصين مبلغاً مماثلاً، وكذلك دول جنوب شرق آسيا [1].

وقد انعكس هذا كلّه فى أحد أهمّ انعكاساته، فيما يسمى بتأصل "الثقافة الشبابيّة، والتى هى اختراع رأسمالى أيضاً، يتجسّد فى أفواج الشباب العاطلين المتسكّعين فى "أحياء الصفيح"، فى الدار البيضاء أو القاهرة أو أمّ دورمان، المبهورين بفتنة جسد "باميلا أندرسون" وهى تمارس السباحة فى المسلسل الأمريكى "باى واتش"[2] أو بجسد وعضلات "أرنولد شوارزينجر"، و"سيلفستر ستالونى"[3]، و"جان كلود فان دام"، أو بفتنة وإغراء مادونا.

الموضوع إذن أبعد ما يكون عن العولمة الحرّة لثقافات العالم المختلفة، حالياً أو فى المستقبل المنظور على أقلّ التقديرات، وإنما هو زيادة ترسيخ الهيمنة الثقافيّة الأمريكيّة، ثم بعد ذلك محاولات الدول الغنيّة التصدّى لها مستقبلاً.

فالعولمة الاقتصاديّة والتجارية والمالية، بل والعسكريّة أيضاً متحقّقة منذ زمن غير قصير وبدرجات عالية جداً تختلف من مجال إلى آخر، وعلى أقل تقدير فى إطار الصراع بين المعسكرين الاشتراكى (سابقاً) والرأسمالى، وليس هناك من عوائق وموانع أمام هذا الزحف الرأسمالى الكونى سوى الخصوصيّات القوميّة

---

١) المرجع السابق، ص ٣٤.
٢) الحبيب الجنحانى، مرجع سابق، ص ص: ٢٣/ ٢٤.
٣) سيمون ديورينج، (الثقافة الشعبية والعولمة)، ترجمة: غادة الحلوانى، **مجلة الثقافة العالمية**، العدد ٩٣، الكويت ٣/ سنة ١٩٩٩، ص ٤١.

أو الهويّات الثقافيّة التى مازالت تقف كحصن منيع يحول دون الاستسلام التام للغرب المهيمن، لذا يرى منظرو ومفكّرو وقادة الغرب أنّه آن الأوان لخضوع العالم لهم، خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وزواله، وعلى هذا العالم - من وجهة نظرهم - أن يتّغط ويعتبر بالمصير الذى آل إليه عدوّ الرأسماليّة الرئيسى، فقد كان أكثرهم قوّة وأشدّهم صلابة وألدّهم عداوة، ولم يعد من المقبول من وجهة نظرهم، "التحدّث عن الشخصيّة القوميّة، فمثل هذه التعميمات بشأن العادات الأخلاقيّة لشعب ما توصف عادة بأنّها غير قابلة للقياس العلمى، فهى بالتالى عرضة لأن تصبح نماذج نمطيّة فجّة ومحبطة لقدرة الشعوب حين تتخذ الأمثلة القصصيّة أساساً لها كما هو مألوف، كذلك تتعارض التعميمات الخاصة بالشخصيّة القوميّة مع مزاج عصرنا الآخذ بالنسبيّة والمساواة حيث أنّها غالباً ما تحوى أحكاماً قيميّة تتعلّق بالقدر النسبى للحضارات التى يتحدثون عنها، فما من أحد يسرّه أن يقال له إن حضارته تشجّع على الكسل وعدم الأمانة، والواقع أن مثل هذه الأحكام كثيراً ما يساء استخدامها [1]، فكل مؤيدى الثقافات القديمة - من وجهة نظر الغرب - معوّقين للتقدم، ويخرجون بنظريات معادية لليبراليّة لأنّها تفوقّت عليهم وأخضعتهم لسلطانها [2] فالرأسمالية هى القومية (الهويّة) التى لا تقهر، وما من أحد تحدّاها وإلاّ وقد باء بهزيمة منكرة[3].

١) فرانسيس فوكوياما، مرجع سابق، ص ٢٠٠.
٢) المرجع السابق، ص ص : ١٩٩، ٢١١.
٣) انظر : المرجع السابق.

الأخلاق الكونية:

هناك محاولات عالميّة مستميتة لتدويل مجموعة من القيم الأخلاقية على المستوى الكونى وإحلالها محل القيم الوطنّية (القوميّة)، تقوم بها المؤسسات الدولية والمعاهد العلمية تحت رعاية ومساندة ودعم وتوجيه الدول المتقدّمة. فهناك عشرات المعاهد العاملة فى مجال الأخلاق الكونية، يقوم بعضها على دراسة الأخلاق من منظور إنسانى، والآخر يعتمد على المنظور الدينى (اليهودى والمسيحى، والإسلامى). [1]

وتبدى هذه الدعوى العولمية براءة وخيراً فى ظاهرها (أو فى بعض جوانبها)، فهى تتم تحت شعارات إنسانيّة عليا مثل الحفاظ على البيئة، والتقارب الإنسانى، والسلام العالمى، ووحدة المصير البشرى، والدفاع عن كوكب الأرض، ومقاومة الأمراض والأوبئة، وتطوير الإنتاج الزراعى والحيوانى و ... إلخ)، غير أنّها قد تضمر ما هو غير برئ فى بعض جوانبها الأخرى مثل تدويل الأخلاق الرأسماليّة، ويؤكّد هذا الافتراض المحاولات المستمرة لتوحيد الأديان (إلغاء الفوارق بينها)، وارتباط هذه الأخلاق الكونيّة – من ناحية أخرى باتباع هذا الميثاق الأخلاقى الكونى لفلسفة تيارات ما بعد الحداثة، بعد ما وصلت الحداثة إلى منتهاها فى ستينيات القرن العشرين بكل الحصاد المرّ الممتدّ منذ بدايات عصر التنوير [2]، فمن المعروف أن رفض الثابت والمقدّس وحتمية القضاء على "التابوهات" مثل (سلطة الأب، شرعية الموروث، و ... إلخ)، من أهم مبادئ هذه الفلسفة التى تذعن لتعليمات الرأسماليّة وتسلس لها قيادها.

---

١) السيد ياسين، (الزمن العربى والمستقبل العالمى)، مرجع سابق، ص ٢٦٣.
٢) المرجع السابق، ص ص : ٢٦٤، ٢٦٥.

ومن المهم بمكان الإشارة فى هذا المنحى (الأخلاقى) إلى أن ظهور العولمة ارتبط بالعديد من المصطلحات المعادية للإسلام، مثل الخطر الإسلامى *The Islamic Threat*، وحرب الإسلام ضد المدنيّة *The Islamic War Against Modernity*، والانتفاضة العالمية (على غرار الانتفاضة الفلسطينيّة *The Global Intifada*، والإسلام الصاعد قد يقضى على الغرب *Rising Islam May Over whelm the West*، ومازالوا يحاربون الصليبيّة *Still Fighting The Crusades* وقبل النظام الرأسمالى المعولم كان الغرب يطلق على المعسكر الاشتراكى (فى عصر الحرب الباردة) إمبراطوريّة الشرّ *The Evil Empire*. [1]

تتصدر عبارة "لأننا لن نعيش القرن الحادى والعشرين بأخلاق القرن العشرين"، صفحة "معهد الأخلاقيات الكونية" على شبكة الإنترنت، ومهمة هذا المعهد تنمية مناقشة الأخلاق الكونية، ونشر الوعى بها. [2]

وهناك مواثيق أخلاقية لضبط سلوك الشركات والهيئات والمنظّمات ومختلف المهن، وقد تلقّى "معهد دراسة الأخلاق المهنية" التابع لمعهد "إلينوى" للتكنولوجيا بالولايات المتحدة فى عام ١٩٩٦ منحة من المؤسّسة القوميّة للعلوم لكى يسجّل على الإنترنت كل المواثيق الأخلاقية التى فى حوزته ويصل عددها إلى ٨٥٠ ميثاق. [3]

دوافع الأخلاق الكونيّة:- [4]

أ. الاعتداء على البيئة الطبيعيّة (الجشع الرأسمالى) مما أفضى إلى كارثة إيكولوجيّة.

---

١) عبد الصبور فاضل، (الخطاب الإسلامى فى ظلّ العولمة)، **مجلة الوعى الإسلامى**، العدد ٣٨٨، الكويت، سنة ١٩٩٨، ص ٢٠.

٢، ٣) السيد ياسين، (الزمن العربى والمستقبل العالمى)، مرجع سابق ص ٢٦٣.

٤) السيد ياسين، (الزمن العربى والمستقبل العالمى)، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

ب. ثورة الهندسة الوراثية وإمكانيات التحكّم فى شكل ومضمون الجنس البشرى.

ج. الإنجازات العلميّة الخارقة.

د. الواقع العالمى الجديد فى نهاية القرن العشرين.

العناصر الأساسية للأخلاق الكونيّة:- [1]

يقوم أساس البناء الأخلاقى الكونى على التوفيق بين الثقافات، وعدم التحيّز لثقافة ضد أخرى، وضرورة عدم النظر إلى هذه الأخلاق على أنّها مفروضة من سلطة أعلى أو أنّها تفرض الوصاية السياسيّة، بل يجب النظر إليها على أنّها نتيجة لمناقشات واسعة المدى، وهى:-

١) احترام حقوق الإنسان.

٢) الديموقراطيّة وعناصر المجتمع المدنى.

٣) حماية الأقليات.

٤) الالتزام بالحلول السلمية للمنازعات، وبالمفاوضات النزيهة.

٥) العدالة بين كل الأجيال، وداخل كل جيل.

وتوجّه هذه المعايير الأخلاقيّة للدول،والتكتلات العالمية والشركات الدولية النشاط، والمنظمات العالميّة، والمجتمع المدنى الكونى.

نماذج مواثيق الأخلاق الكونيّة:-

المشروع الأوّل : "نحو أخلاق كونيّة": [2]

كان هذا المشروع جزءً من أعمال "اللجنة الدولية للثقافة والتنمية" التى شكّلتها اليونسكو فى عام ١٩٩٢، والتى أصدرت تقريرها تحت عنوان "تنوّعنا

١) المرجع السابق، ص ص : ٢٦٧، ٢٦٨.
٢) المرجع السابق، ص ص : ٢٦٥، ٢٦٧.

المبدع"، ويعتمد هذا المشروع على كل التقاليد الثقافيّة العالميّة تقريباً كمصدر للأخلاق الكونيّة.

وأوّل هذه المصادر هو التركيز على المساواة الأخلاقيّة لكل البشر والاهتمام بفكرة الضعف الإنسانى، والدوافع الأخلاقيّة لإزالة المعاناة البشريّة بقدر الإمكان، وهناك مجموعة من الأخلاق النابعة من طبيعة تطوّرات عالمنا المعاصر كثقافة مدنية كونيّة *Global Civic Culture* (ليس مما يسمى تقليدياً بالثقافة)،وهى : فكرة حقوق الإنسان، وفكرة الشرعية الديموقراطيّة،وفكرة المحاسبة العامة، والفكرة الخاصة بإبانة الدليل على أيّة دعوى، وكلّها أفكار مرشّحة لأن تكون أخلاقاً كونيّة.

ويضاف لما سبق المثاليّات التى تتبناها الأمم المتحدة وتكتسب بها شرعيّة أيدولوجيّة، أمّا الوعى البيئى وحقوق الإنسان فهى أدلة وجود ثقافة مدنيّة كونيّة

لقد أصبحت فكرة حقوق الإنسان مقياساً للحكم على السلوك السياسى، وسوف تكون أهم أعمدة الأخلاق الكونيّة، فلم يعد نمط الحكم اليوم شأناً من الشئون الداخليّة، بل أصبح مجالاً للاهتمام الدولى ويؤكّد هذا تصاعد عمليّات مراقبة الانتخابات باعتبار الديموقراطيّة قيمة (كونيّة) فى حدّ ذاتها وشرطاً حاسماً لتحقيق الكفاءة المؤسسيّة والاستقرار والسلام الاجتماعى

إن هناك طلباً متزايداً على ضرورة المشاركة السياسيّة على المستوى الدولى، والتعاون متعدّد الأطراف بين المنظّمات الدوليّة والحكومات على الرغم من أن مواجهة المشكلات مسؤولية الحكومات وحدها.

والأخلاق الكونيّة تأخذ إطاراً سياسياً قائماً على تصاعد العلم والتفكير العلمى للتصدى للمشكلات العالميّة، واعتبار أن العلم الآن يحاول النهوض على أساس المصالحة بين القيم والتكنولوجيا.

المشروع الثانى:- "مبادئ الأخلاق الكونيّة" [1]

وقد أقرّه فى عام ١٩٩٣ "مجلس برلمان أديان العالم *Council for Parliament of World Religions*"، وقد وضع الميثاق : هانس كونج *Hans. Kung*، وترجمه من الألمانيّة إلى الإنجليزيّة ليونارد سويدلر *Leonard Swider* وشارك فى وضع هذا الميثاق باحثون من مختلف الأديان، حيث قدّم ليونارد سويدلر دارسة بعنوان "نحو إعلان عالمى للأخلاقيات الكونية" تحدّث فيها عن معنى الدين والانتقال من عصر (المونولوج) إلى عصر (الديالوج)، وعن العصر الجديد والتحوّل الجوهرى فى النموذج الأساسى *Paradigm* معتمداً على نظرية فيلسوف العلم الأمريكى *T. Kuhn*، وعلى الكونيّة وعصر الحوار الكونى، ثم استخلص المبادئ من الأديان الثلاثة.

وقدّم خالد دوران *K. Duran*، ورقة عمل عن "منظور إسلامى للميثاق" وقدّم جون هيك *John Hick*، منظوراً مسيحياً للميثاق، وقدّم موتومبو نوكولو *Mutombo Nkulu* وجهة نظر أفريقية (إسهام أفريقى) فى مشروع الأخلاقيّات الكونى.

ويرى "السيد ياسين" أنّه من الممكن فى ضوء هذا الميثاق وضع ميثاق عربى أخلاقى للمنظمات التطوعيّة العربيّة. [2]

---

١) السيد ياسين، (الزمن العربى والمستقبل العالمى)، مرجع سابق، ص ص : ٢٦٨، ٢٧٠.
٢) المرجع السابق، ص ٢٧٠

وكأن الأديان السماويّة الطاهرة قد خلت من القيم الإنسانيّة، أو أنّها انتهكت حقوق الإنسان، أو أن الطريقة التى تراعى بها هذه الحقوق أو بعض أخلاقياتها لم تعد تتماشى مع عصر الثورة العلميّة المعجزة، فمن ينظر فى مشاريع الأخلاق الكونية نظرة موضوعيّة يلحظ وبسهولة تامة أن الهدف النهائى هو إزاحة التمايز الدينى والقضاء على التعدّدية القومية (ثقافياً ودينيّاً)، وأن هناك عداءً ضمنيّاً للأديان السماويّة، فقد انتهى من وجهة نظر المتوئمين الجديد عصر المونولوج "التعاليم الفرديّة" وبدأ عصر الديالوج "تعاليم الحوار والمناقشة"، إذن المطلوب هو الانصراف عن أنبياء الله سبحانه وتعالى عليهم السلام، واتباع أنبياء العولمة الجدد، الذين يرون أن الأديان السماويّة لم تعد تتناسب مع بدايات القرن الواحد والعشرين.

ومن الملاحظ أنّه على الرغم من أهمية وخطورة وكثافة فعالية هذا التيار المعولم بكل إيجابياته وسلبياته، والذى يهدف إلى إذابة الفوارق بين الأديان (وليس الطبقات) إذابة هذا الناتج الدينى الموحّد (خلاصة الأديان السماويّة) فى الثقافة الكونيّة (الرأسماليّة بالطبع)، من الملاحظ إعراض وسائل الإعلام ومعظم المفكّرين عن التعرّض له، الأمر الذى يثير العديد من التساؤلات.

أمّا المحور الثانى فهو :- مؤسّسات المجتمع المدنى:

تنامى فى عصر العولمة دور مؤسّسات المجمع المدنى فى إطار الاستقلال عن الحكومات الوطنية، وتركّزت أنشطتها على القضايا ذات الأبعاد العالميّة مثل: حقوق الإنسان، وحماية البيئة، ومساعدة اللاجئين وضحايا الحروب والكوارث الطبيعيّة، "وتعتبر منظّمات وجماعات حقوق الإنسان التى تأتى فى مقدّمتها منظمة العفو الدوليّة، ذات نشاط ملموس فى هذا المجال مما أسهم فى

عولمة قضيّة حقوق الإنسان"[1]، وقد أخذت صلاحيات هذه الهيئات شكل التزايد المتصاعد حتى أصبحت تمثّل ضغوطاً شديدة على الحكومات الوطنية بحصولها عل الحق (العالمى) فى التدخّل فى كل صغيرة وكبيرة تحت ستار حقوق الإنسان والشرعيّة الدولية والديموقراطيّة الكونيّة التى تمنحها حق تصعيد القضايا للمستوى العالمى، والمطالبة بفرض العقوبات أيضاً، فأساء بعضها استخدام هذه الحقوق فى تحقيق أغراض خاصة، والبعض الآخر تحوّل من العمل الاجتماعى إلى العمل السياسى والتجسّسى أيضاً لحساب المركز المهيمن.

وهناك اتجاه عام يؤكّد أن العولمة تقوّى مؤسسات المجتمع المدنى (الأحزاب السياسيّة، والنقابات، والجمعيّات الخيريّة، و ... إلخ) فى ضوء الاعتبارات الآتية:- [2]

١- عولمة قضايا حقوق الإنسان:

العولمة تعنى أن قدرة النظم الحاكمة على إخفاء ممارسات القوّة والقهر والعنف وانتهاك حقوق الإنسان تتقلّص بصفة متسمّرة بسبب الضغوط الدوليّة والعقوبات.

٢- تنوّع مصادر المعلومات المتاحة للمجتمع المدنى:

فى ضوء ثورة المعلومات والاتصالات المعولمة تتضاءل سلطة الدولة فى السيطرة على حركة المعلومات والأفكار عبر الحدود، مما يسهم فى تقليص سيطرة الحكومات على المجتمع المدنى.

ويفسّر البعض نجاح عمليات التزاوج الثقافى فى المجتمع الأمريكى بقدر الحريّة الممنوحة لهذه المؤسسات. فهى أقل مركزية من مثيلاتها فى أوروبا، وتدخّل

١) حسنين توفيق إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٩٣.
٢) المرجع السابق، ص ص : ١٩٨، ١٩٩.

الحكومة فى عملها يكاد لا يذكر، وقد ساعد هذا على ارتباط المجتمعات المحلّية بقضايا الوطن العامة أكثر، وزاد من قدر التحوّلات الديمقراطيّة التى يشهدها المجتمع، فهى تعمل بحرية تامة لإنجاز أهدافها بطريقتها الخاصة.[1]

٣- تنامى دور المؤسسات الدوليّة غير الحكوميّة: (المجتمع المدنى العالمى):

يتزايد اهتمام منظّمات المجتمع المدنى العالمى (المؤسّسات الدوليّة) وفى مقدّمتها الأمم المتحدة، بإحياء دور المجتمع المدنى فى دول الجنوب، وتخصص الدول الكبرى جزءً من القروض والمعونات التى تقدّمها لهيئات المجتمع المدنى فى العالم الثالث، وهذا يسهم فى تقويتها لمواجهة التسلّطية.

٤- ثورة تكنولوجيا الإعلام والاتصال والمعلومات:

تتيح هذه الثورة لهيئات المجتمع المدنى وللجماعات المعارضة إمكانيات مفتوحة للنشاط ضد النظم الحاكمة، ويعد أسلوب تعبئة وتوزيع الكاسيت لتهيئة الشعب الإيرانى للثورة أسلوباً قديماً مقارنة بزمن الفاكس والقنوات الفضائية والإنترنت.

إن تأثيرات العولمة على العلاقة بين الحكومة والمجتمع المدنى ذات شقيّن الأوّل إيجابى ويتمثّل فى تقليص سيطرة النظم الحاكمة على المجتمع المدنى، بيد أن هناك عوامل أخرى تعمل فى الاتجاه المضاد، فالدولة أيضاً يمكنها أن توظف إنجازات التكنولوجيا الحديثة لممارسة التسلّط والتجسّس والقمع المادى والمعنوى كما أن العولمة تفضى إلى زيادة اتساع الفجوة بين الشمال والجنوب الأمر الذى يعنى زيادة تفاقم الأزمات والمشكلات الاجتماعيّة فى دول الجنوب مما يفرض

1)Thda Skocpol and Morris P. Fiorina Editors, Civic Engagement in American Democracy, Brokkings Institution Press, Washington, D.C, U.S.A 1999; p.p. 31:32.

بطبيعته العديد من الحواجز والصعوبات فى طريق الاستقرار الاجتماعى بالإضافة إلى أن توسّع وتعمّق مظاهر العولمة يتوازى ويتزامن مع زيادة تنامى حركات التفكك والانفصال الداخلى حول العالم كلّه وبصفة خاصة فى العالم الثالث، وتصاعد تيارات الانتماءات والنزاعات الأوّليّة، القبليّة والعرقيّة والطائفيّة، وكل هذا يعوق بل ويقيد حركة المجتمع المدنى [1] ولا يمكن عزل هذه التداعيات عن عاملين هما:-

١- تزايد المشكلات العالمية العابرة للحدود وتصاعد حدّتها: [2]

الجرائم والمخدرات وغسيل الأموال والهجرة غير المشروعة والتطرّف والعنف والإرهاب الدولى وتلوّث البيئة والأمراض الفتّاكة و ... إلخ، بالإضافة إلى تعاظم خطر العصابات الدوليّة المنظّمة ومافيا الجريمة العالمية المعتمدة على الاستخدام المكثف للتكنولوجيا الحديثة.

٢- تفاقم مشكلات العالم الثالث خاصة فى إفريقيا: [3]

الحروب الداخليّة التى تضع الدول على طريق الانهيار أو تضعف كيان الدولة، والنزاعات المسلحة بين الدول، وتصاعد الصراعات الداخليّة، والإقليميّة وتزايد حدّة مشكلة اللاجئين، ويضاف لكل هذا الأزمات المزمنة : التفاوت الطبقى، وفشل التنمية، وتدهور مستويات الرعاية الصحيّة والاجتماعيّة والانفجار السكّانى، وتدنّى الخدمات التعليميّة، هذا غير مشكلات عدم الاندماج الوطنى، والأزمة التوزيعيّة، وتدهور شرعية النظم الحاكمة، وتعدّد مصادر النزاع وتدفّق تجارة السلاح الدوليّة على العالم الثالث.

---

١) حسنين توفيق إبراهيم، المرجع السابق، ص ص : ١٩٩، ٢٠٠.
٢) المرجع السابق، ص ١٩٢.
٣) المرجع السابق، ص ص : ١٩٢، ١٩٣.

التربية والعولمة الثقافيّة:-

(العوحلية)

تجمع كل الآراء – بما فيها المؤيّدة للعولمة – على أن الخصوصيّات الثقافيّة الوطنيّة حول العالم كلّه أصبحت فى خطر متزايد يهدّدها بالانقراض والزوال بسبب الضغوط العالية والكثيفة لطوفان الرأسماليّة التوربينيّة خاصة المجتمعات الرأسيّة، عندما توضع العولمة موضع التنفيذ بواسطة الحكومة المركزيّة، فيصبح المجتمع عرضة للتحوّلات الثقافيّة [1] القوية، غير أن سدنة العولمة (النخبة والذيول) يذهبون إلى القول بإن الأمر لا يتعدّى مجرّد التعدّدية فيما يبدو على أنّها محاولة لتهدئة الأوضاع أو ضبط النفس لإكتساب أكبر كم ممكن من الوقت حتى تكتمل عمليّات التدويل الثقافى، بينما لا يعر بعض هؤلاء ردود الفعل القوميّة أى اعتبار أو اهتمام، ويجهر بالعداء المباشر والتهديد والوعيد والويل الشديد لكل من يعترض سبيل الرأسمالية، فيلقى نفس المصير الذى لقيته الكتلة الاشتراكية (سابقاً) من أمثال فوكوياما.

أمّا مصدّرو الفكر المعولم الذين يوافقون على التعدّديّة الثقافية، مثل "توماس فريد مان" فهم يقبلون اللا تجانس *Assymmetry* على مضض، ومن خلال قناعتهم الشخصيّة الراسخة بحتمية الانتصار النهائى ورسملة الكون رسملة كليّة، "فلا بأس فى أن يوجد فى عالم ديزنى الجناح الصينى والجناح الفرنسى والجناح المكسيكى، ولكن فليلطف بنا الله من عالم يكون فيه الجناح الصينى فى عالم ديزنى هو كل ما يذكّرنا بما كانت عليه الصين" [2]

---

١) نويل. ف. ماكجين، (أثر العولمة على نظم التعليم الوطّنية)، ترجمة : مجدى مهدى على، **مجلة مستقبليّات**، المجلّد السابع والعشرون، العدد ١، مركز مطبوعات اليونسكو، القاهرة، سنة ١٩٩٧، ص ٥٤.

٢) توماس فريدمان، **السيارة ليكساس وشجرة الزيتون، محاولة فهم العولمة**، ترجمة: ليلى زيدان، القاهرة، الدار الدولية للنشر، سنة ٢٠٠٠، ص ص : ٣٨٨، ٣٨٩.

إن قناعات المفكّر المعولم "توماس فرايدمان" بانتصار العولمة فى معاركها على جبهات الجهد الإنسانى كافة تتعدى نسبة المليون فى المئة، فما الذى يجعله يقبل مثل هذه الفكرة؟ بل ويحاول بنفسه أن يجد مخرجاً لمأزق الخصوصيّة، والعولمة الثقافيّة؟ لقد أوقعه ادعاء الأمانة الفكريّة والموضوعيّة فى توضيح سبب هذه الغصّة الفكرية، إنّها صادرة عن قرينه المعولم وشريكه فى المصالح والأهداف (صديقه العوحلى). "يواف ساجى" رئيس جمعية حماية الطبيعة فى إسرائيل، الذى يرى أن استمرارية توغّل العولمة سوف تقضى على نوعية الحياة ونوعية الأرض التى تساعدهم على الاستمرار، لذا يرى فريدمان أن نزع الناس عن بيوتهم (بالتجانس أو بتدمير البيئة) لا يعرّض التراث الثقافى وحده للخطر ولكن التماسك الاجتماعى أيضاً. (١)

يقول "إنك لا تستطيع بناء مجتمع ناهض – وهو شئ جوهرى فى التعامل مع نظام العولمة – إذا كنت تدمّر فى آن واحد الأساسيّات الثقافية التى تدعم مجتمعك وتعطيه الثقة بالنفس والتماسك لكى يتفاعل بصورة سليمة مع العالم، وعندما تقتلع العولمة الجامحة الثقافات والبيئات من جذورها تدمّر فى الوقت ذاته النسيج الضرورى اللازم للحياة الاجتماعيّة". (٢)

ومع ذلك فهو يرى أنه ليس فى وسع أحد أن يأمل فى الحفاظ على التراث الثقافى كلّه حول العالم كما هو، كما أنّه لا يجب الاحتفاظ بتراث ثقافى يفتقر للإرادة الذاتيّة والتماسك اللازمين لاستمراره، فظهور الثقافات ثم موتها جزء من التطوّر، أمّا ما يحدث اليوم فهو شئ مختلف أقرب إلى الظلم فى عالم

١) المرجع السابق، ص ٣٨٤.
٢) المرجع السابق، ص ٣٨٥.

بلا أسوار أو حواجز لا تستطيع فيه الثقافات القويّة مجاراة القطيع الإليكترونى وتحتاج لما يساعدها على البقاء. [١]

والحلّ من وجهة نظره (وهو لا يزيد عن كونه مجرّد أمل)، هو تطوير "مرشّحات ثقافيّة" لمقاومة قوى وسرعات الأمركة (العولمة)، وأهم هذه المرشحات هو القدرة على الجمع بين المحلّية والعالميّة فيما أطلق عليه "العوحليّة" ويقصد بها "قدرة ثقافة ما فى مواجهتها لثقافات قويّة أخرى على امتصاص التأثيرات التى تتوافق طبيعيّاً معها، وأن تثرى هذه الثقافات وقدرتها على مقاومة تلك الأشياء الدخيلة بحق، وقدرتها على أن تحتوى تلك الأشياء التى يمكن - رغم اختلافها - الاستمتاع والاحتفاء بها لأنّها شئ مختلف. [٢]

ثم يحاول بعد ذلك التأصيل التاريخى "للعوحليّة" الصحيّة بأنّها عمليّة قديمة جداً، ويضرب مثلاً بالثقافة اليهوديّة (القويّة!) التى استطاعت أن تمتصّ مؤثّرات كثيرة من دول مختلفة دون أن تفقد هويتها، فعندما واجه اليهود الإغريق لأوّل مرّة فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان المنطق الإغريقى أوّل وأكثر شئ امتصه الفكر اليهودى (كما يقول) لأنّه تجانس مع تعاليم التوراة والحاخامات فى حين أنّه لم يمتصّ فكرة إله الحب "إيروس" أو تعدّد الآلهة"، و"قد كان الإغريق يستمتعون بمشاهدة الرياضة العارية، ولم يفعل اليهود ذلك، ولم يتمصّوا تلك الجزئيّة من الثقافة الإغريقيّة". [٣]

ثم يذهب بعد ذلك للتأصيل الفكرى "للعوحليّة" الصحّية فيصفها بأنّها عمليّة مستمرّة وبلا حدود من المحاولة والخطأ، والذين يخشون التجربة والخطأ

١) توماس فريدمان، المرجع السابق، ص ٢٨٦.
٢) المرجع السابق، ص ٣٧٤.
٣) المرجع السابق، ص ص : ٣٧٤، ٣٧٥

مثل "طالبان الأصوليّة الإسلاميّة"، ويسدلون الحجاب على بلادهم أو يبنون أسواراً أعلى وأعلى، فسوف يجتاح قطيع العولمة الإليكترونى هذه الأسوار ويدمّرها وتستولى عليهم (تستوعبهم) ثقافات أخرى، وتتحوّل بلادهم إلى مجرّد مكان تعبر منه الثقافات والدول. (١)

وعلى الرغم من هذا كلّه فإن "فريدمان" يعتقد أن هذه المرشّحات العوحليّة الصحيّة قد لا تكون من القوّة بحيث تستطيع إيقاف القطيع الإليكترونى. لأن عنف وقوّة ثقافة ماكدونالدز أكبر وأقوى، والأمر يتطلّب وجود مسؤولين لا يمكن شراءهم وسياسيين يعرفون القيمة الحقيقيّة للتراث. (٢)

وعن عداء "توماس فريدمان" كرفقاء كفاحه الرأسماليين لكل ما هو إسلامى، نكتفى بالرد بنفس المثل الذى اتخذه للسخرية من التمسّك بالخصوصيّة الإسلامية عن "النقاب" والأسوار العالية التى يتحدّث عنها، فنقول له إن كراهيته لطهارة وعفّة المرأة فى المفهوم الإسلامى شئ يخصّه وحده، أمّا عن انحيازه المطلق لكل ما هو إسرائيلى (يهودى) فنسأله أن يعيد قراءة التاريخ بحيدة وموضوعيّة ليعرف جيداً علاقة اليهود بثقافة العرى وتعدد الآلهة، وكل ما نرجوه منه فى هذا السياق فقط هو تصحيح مصطلح الامتصاص الثقافى إلى معناه الواقعى ليصبح "السطو الثقافى" الذى ما زال مستمرّاً حتى يومنا هذا تحت أعين العالم كلّه وتحت حماية الغرب وفى مقدمّته الولايات المتحدة، بسرقة التراث الثقافى الفلسطينى وتشويه وتزييف الحقائق.

---

١) المرجع السابق، ص ٣٧٦.
٢) المرجع السابق، ص ص : ٢٧٦، ٢٨٢.

والحمد لله أن "فريدمان" يعترف صراحة بأن أهم آليّات السياسة الرأسماليّة للقضاء على الخصوصيّة هى الرشوة والخيانة والعمالة (العملاء) وتعميق الجهل (التجهيل).

إننا نعبر بوابات "عالم يفور كى يتحوّل أبناؤه إلى وجوه متشابهة على النمط الأمريكى، لا تمايزات ثقافيّة، ولا إبداعات محليّة، ولا ملامح خاصة إنها حتمية العالم الجديد التى حطّت محلّ اليقين القديم بانتصار الاشتراكيّة بحثاً عن عالم أكثر عدلاً، ففى العالم الجديد حيث لم يعد للعدل مكان صار الحلم بعالم أكثر رفاهية، والمبشّرون الجدد يلوّحون لنا (نحن فى عالم الجنوب) بالديموقراطيّة معبّأة فى زجاجات الكوكاكولا، والذين أضناهم الفقر والقهر عبر طابور طويل يلهثون أمام البوابة الواسعة، لكن هل سيحصلون على جزرة الديموقراطيّة فى النهاية أم لا؟".[1]

أمّا عولمة المستقبل فى عالم (ماكدونالدز، وجينرال موتورز، وتوشيبا وجينرال إليكتريك، ودجاج كنتاكى، وأحذية أديدس، و ... إلخ)، فليس فيه حرية أو عدل، ليس فيه سوى المزيد من الفوضى تبعاً لنبوءة "بنيامين باربر" حين تتعايش الأسواق المفتوحة مع الحروب الإقليميّة الصغيرة، ومع الوجبات الجاهزة السريعة، والموسيقى الصاخبة السريعة.[2]

وتداعيات العولمة على المجال الثقافى (تآكل الخصوصيّة) تفوق كل تداعيتها على المجالات الأخرى – بما فى ذلك الميدان الاجتماعى – بأضعاف مضاعفة، وتتجلّى خطورة هذه التداعيات فى تركيز العولمة على الإعلام بكل الطرق المباشرة وغير المباشرة وبأشدّ قوّة وأقصى سرعة، ليس فقط من أجل

١) حنان كمال، (الديموقراطيّة تاهت فى السوق)، **مجلة سطور**، العدد ٤٢، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ٢٤.
٢) المرجع السابق، ص ٢٥.

هيمنة الثقافة الغربيّة أو تحويل بقية الثقافات إلى توابع (نسخ) رأسماليّة مشوّهة (بتدويل القيم والمعتقدات والآراء والأفكار)، ولكن لخلق أكبر كم ممكن من المقتنعين بها (الأعداء الداخليين)، أى توسيع رقعة العولمة الثقافية بما يسمع بإتاحة الفرصة لتوفير الجهد والوقت والإمكانات لإنجاز المهام فى الميادين الأخرى، وقد أثّرت الثقافة الرأسماليّة بالفعل فى معظم الثقافات البشرية لدرجة تهدّد بالتآكل التام والفناء لكثير من الخصوصيّات، وبات العالم كلّه يشكو من الاستعمار الثقافى الأمريكى. فعندما تقدّم رئيس الوزراء الهندى السابق : آى. كى جوجرال (ويعتبر من أكثر السياسيين ثقافة فى الهند) بطلب فى مؤتمر لليونسكو يقصد به أن يكون "النظام الإعلامى الجديد" الذى يسيطر على العالم من طرفيه : الثقافة والمعلومات، متبادلاً بدلاً من سيطرة ثقافة واحدة، ذهل بتأييد ممثل "كندا" لهذا المطلب، وعندما سأله عن السبب كانت الإجابة أن كندا تعانى بالفعل مما يخشاه، فلم يعد هناك مسرح أو موسيقى أو أفلام أو ثقافة أو لغة إلاّ وقد "تأمركت" جمعياً.[1]

لقد تحوّلت قطاعات عريضة بالفعل فى مصر تحوّلاً قد يكون شبه تام عن ثقافتنا الإسلاميّة وأصبحت الفتيات تتسابقن فى ارتداء واقتناء ملابس العرى، وأحدث الموضات الغربية وآخر صيحات الـ "ميك أب"، وأصبح همّهن الوحيد فى الحياة هو تطوير وتعديل أجسادهن إلى الـ "ستايل الأوروبى" بمواصفات بيولوجيّة خاصة، بالتخسيس والرياضة والرجيم والـ "دايت سويت"، وأصبح لديهن اعتقاداً راسخاً بأن إبراز مفاتنهن أحد حقوقهن المعبّرة عن حريتهن التى هضمها وجار عليها المجتمع الشرقى طوال القرون الماضية. وكأنما ربّاهن الغرب وتأثرن

١) توماس فريدمان، مرجع سابق، ص ٣٤٠.

بعاداته وتقاليده، فوصل الأمرُ إلى أن ظهرت صدور المسلمات وانكشفت النهود باسم المدنيّة والثقافة والتحرر.[1]

أمّا الفتيان فلم يعد لهم أى هم سوى تقليد الأجانب (الأمريكيين بصفة خاصة) فى كل شئ بداية من الثياب الجينز والشكل (قصّات الشعر الحديثة مثل الكابوريا، والبانكى، و ... إلخ)، وطريقة التصرف وأساليب الكلام والمصطلحات الأجنبية، *O.K, See You*، و ... إلخ، ونهاية بالاقتناع بحرية المرأة الجديدة فى التصّرف وإقامة العلاقات الخاصة تحت شعار الصداقة والتمدين "وهذا غاية ما وصلوا إليه من نزع للغيرة والحياء وخلع لتقاليد العزة والشرف مما دعاهم أن يجعلو من المرأة – التى كان يموت دونها الرجال وتراق دماء الشرف وتندلع نيران الحرب والقتال – معرضاً متجولاً فى الشوارع والطرق والأسواق يتاجرون بمحاسنها ويفتخرون بجمالها"[2].

لقد أصبح الطعام الوطنى الجديد فى بعض المدن الكبرى فى مصر هو الطعام الأمريكى : "الميجاميل" والـ "سناك بوكس" والـ "كول سلو" و "تشيكن الكومبو" الـ "بيتزا كراست" والـ "هوت دوج" و "بيف بيرجر" و "قطع النجيتس" والـ "بافلو وينجس" و... إلخ، وامتزجت مفاهيم تحقيق الذات والكيان والشخصيّة بمفاهيم الغربنة امتزاجاً تاماً، وأصبح معيار التقدّم والمعاصرة هو أن تجلس على مقعد "البار" الدائرى وتهتزّ يميناً وشمالاً أمام الساندويتش وعبوة الكولا، أو أن تستطيع الدخول على شبكة الإنترنت وتتفاهم مع أندية "البورنو" أو تبنى علاقة عبر قوميّة مع الشاذين والشاذات، أو أن تلمّ بآخر الأخبار الأمريكيّة عن "مايكل جاكسون" أو "باميلا أندرسون" أو ... إلخ.

١، ٢) رمضان عبد المطلب عثمان، (الدين والعلم فى مواجهة مشكلات الشباب)، **دراسات إسلامية**، العدد ٤٢ القاهرة، وزارة الأوقاف، ١٩٩٩، ص ١٠٠.

لقد تحوّل كل ما هو وطنى إلى رمز للتخلّف والغباء والرجعيّة، وكل ما هو إسلامى إلى رمز للتطرّف أو للوصم بالأصوليّة والانغلاق على أقلّ تقدير وصارت منجزات الآباء، والأجداد الذين مازالو على قيد الحياة من التراث العتيق العقيم الذى يجب نسيانه أو إهماله أو عدم ذكره على الأقلّ فى ضوء الطموحات والتطلّعات الفردية الجديدة، إن أعداداً غفيرة من الشباب لا تعرف شيئاً عن حقيقة تاريخنا، ولا عن خصائص ثقافتنا، ولا تجد غضاضة فى الاعتراف بهذا أمام المجتمع وأجهزة الإعلام.

لقد أصبحت فئات كثيرة تعيش فى مقاطعة مصر (الأمريكيّة)، ففى أهم ميادين الإسكندرية على سبيل المثال يكون من الصعب – إن لم يكن من المستحيل – أن تجد معرضاً أو مطعماً ذا اسم عربى، أو أن تجد عمارة أو بناية ذات طابع عربى، حتى البنايات القديمة من أيام العهد الملكى تجدها على الطابع الإيطالى أو الإنجليزى، لقد كان ميدان "محطة الرمل" أيام المدّ الاشتراكى والحلم بالقومية العرّبية مزدحماً بالرموز الوطنيّة، مثل مطاعم "عينو" و "على كيفك"، ومعارض "المختار" و"عمر أفندى" و"كوكب الشرق" و ... إلخ، والآن لم يعد هناك سوى تمثال الزعيم "سعد زغلول" يتيماً وغريباً أمام البحر ومن خلفه محلاّت "ماكدونالدز" و"كنتاكى" و"مارلين مونرو" و"مادونا" و"سان ميشيل" و"تافرنا" وفنادق "سيسيل" و"برادايز إن" و"متروبول"، وجينز ستربت، وجينز ويست و ... إلخ.

إن جوهر الهويّة هو شعور الفرد بالتوحّد مع الجماعة دون أن يمثّل ذلك قيداً على حركته أو على ما يريد، بل يجد ثمة ترابطاً وانسجاماً بين ما تراه

الجماعة وما يفعله كفرد.[1]، و"تعد الهويّة القوميّة أساس استمرار أى جماعة"[2] وهى تنطوى بطبيعتها على قاسم مشترك عالمى مع غيرها من الهويّات القوميّة والدعوى إلى توسيع أو تغليب هذا القاسم المشترك على بقيّة الملامح الذاتيّة ما هى إلى دعوة للقضاء على الخصوصيّة، وتوسيع وتغليب التميّع والتشوّه الثقافى.

والهويّة القوميّة هى التى "تجعل من السمت الفردى نموذجاً لما هو جماعى[3]، و"عدم القدرة على التعايش مع واقع المجتمع الذى ينتمى إليه الشخص بحكم المولد والنشأة والتنشئة هو مؤشّر واضح على عدم القدرة على التوحّد مع ذلك المجتمع وثقافته الوطنيّة". [4]

أمّا حالة التشتت الثقافى وعدم القدرة على الاختيار فى ضوء المقارنة أو العجز عن اتخاذ القرار فى ضوء المفاضلة، فلها أسبابها الاجتماعيّة المتعلّقة بالأوضاع القائمة فى المجتمع الوطنى وفى المجتمع الآخر (الأجنبى)، وتعتبر مسؤولة عن عدم تكامل الشخص مع مجتمعه ورفضه لثقافته والشكّ فى إمكانيّات المجتمع ونظمه وقيمه وقدراته على الإنجاز، الأمر الذى يترتب عليه الرفض والتمرّد والانعزال والبحث عن ثقافة مجتمع بديلة وأوضاع أكثر مواءمة لطموحات الذات الفرديّة [5]، وهذا قد يعنى تضخّم روح الأنانيّة الفرديّة كما أنه قد يعنى عدم قدرة الشخص على التكامل (التصالح) مع ذاته.

فالهويّة الثقافيّة (الذاتية) الراسخة المستقرّة هى طوق النجاة من الأمواج العاتية المتلاطمة التى تتقاذف الفرد حين تختلط عليه الأمور، فهى التى تنير أمامه

---

١) عبد اللطيف محمود، (دور التعليم فى الصراع العربى الصهيونى، من مرحلة المواجهة إلى زمن التسوية)، التعليم وتحديات الهوية القومية، **كتاب المحروسة**، القاهرة، مركز البحوث العربيّة، سنة ١٩٩٨، ص ١١٤

٢) المرجع السابق، ص ١١٣.

٣) المرجع السابق، ص ١١٤.

٤، ٥) أحمد أبو زيد، (الثبات الثقافى)، مرجع سابق، ص ٣٧.

الطريق وتزوّده بأسس الاختيار والمبادئ التى يقيم عليها المقارنة بين "الذات" و "الآخر"، فالهويّة الثقافيّة هى صمام الأمان وسط النزعات والرغبات والأهواء المتصارعة داخل الفرد، وكذلك وسط عوامل الإغراء والإغواء التى يزخر بها عالمنا المعاصر المتغيّر الذى اختفى منه كثير من مظاهر الاستقرار، نتيجة لتعقّد وتشابك أساليب الاتصال وسيولة المعلومات والتدفّق المعلوماتى عن أنماط الحياة المختلفة وأساليب العيش والتعامل والتفاعل فى المجتمعات والثقافات الأخرى، مما يدفع إلى التمرّد وعدم الرضا بالواقع المألوف ويغذّى الطموحات ويشجع على التطلّعات الفرديّة، بكل ما يحمله ذلك من ازدياد الشعور بالذات وتراجع الإحساس بالانتماء إلى المجتمع والثقافة اللذين يؤلفان جزءً جوهرياً فى كيانه وتكوينه العقلى والعاطفى بل والفيزيقى أيضاً" [1]

والخلاصة من هذا كلّه أن الربط بين الهويّات القوميّة والنزعات الإرهابيّة ما هو إلاّ زيف لا يراد به سوى المزيد من التزييف، وأن تنمية الحسّ القومى تؤدّى دوراً مهماً فى:-

- خلق الشخصيّة المتوازنة.
- خلق التكامل الاجتماعى.
- تنمية الروح الابتكارية والتجديد.

(لإثبات القدرة على التحدّى والمنافسة وتحقيق الذات).

ومن ثمّ فإن ربط تحقيق هذه الأهداف بالثقافة الكونيّة والهويّة العالميّة فقط ربما ينطوى على كثير من الشكّ، وعليه تكون أهم وظيفة للتربية فى عصر العولمة هى : تدعيم الخصوصيات الثقافيّة، باعتبارها مسئولة عن إعداد

---

١) أحمد أبو زيد، (الشتات الثقافى)، مرجع سابق، ص ٣٧.

البشر وعن تكوين النسق الفكرى الموجّه للسلوك والمتحكّم فى الممارسة والمحدّد لمفهوم "الأنا" و"الآخر".

المواطنة العالميّة:-

الترويج لمفهوم المواطنة العالمية (أو المواطنة الكونيّة) ووقف دلالاته على معنى الاندماج الثقافى مع الآخر فقط كشرط للقبول، وربطه بمفاهيم التمدين والتحضر والتطوّر والتقدّم ينطوى على كثير من المغالطة، فالاتحاد السوفيتى (السابق) على سبيل المثال حقّق تقدّماً علمياً عجز الغرب عن الوصول إليه إلى الأن، وهو تحت حصار الستار الشيوعى الحديدى، وكانت علومه وتقنياته ومنجزاته تبنى على الفلسفة المغايرة إثباتاً لصحة التوجّه الأيديولوجى آنذاك (ومحطة مير الفضائية، وصواريخ سام فائقة القدرة، وطائرات الميج الكونية خير شاهد على هذا)،واستطاعت الصين أن تلحق بقطار التقدّم العلمى والتكنولوجى وأن تصبح قطباً عالمياً منافساً للولايات المتحدة وأوروبا فى ظلّ خصوصياتها الاشتراكية المطعّمة بلقاح رأسمالى آسيوى، ودول العالم الثالث أحوج ما تكون الآن وأكثر من أى وقت مضى فى ضوء انفجار أزماتها المزمنة إلى التوجّه للداخل لتنمية القدرات وإعادة اكتشاف الذات وإعادة ترتيب الأوضاع الاجتماعية والسياسيّة والاقتصاديّة بعيداً عن الانغلاق أو التقوقع، فليس من الممكن إنكار دور الانفتاح على الآخر لتحقيق التقدّم والتطوّر أو لإنجاز التنمية، بيد أن هذا كلّه لابد أن يتمّ من خلال الهويّة القوميّة كما حدث فى الغرب ذاته منذ الثورة الصناعيّة الأولى.

وحصر مفاهيم الرفاهية والتقدّم والتسامح والوعى والانفتاح داخل حدود المواطنة العالميّة فقط يهدف فى سياقاته الضمنيّة ليس فقط للترويج للرأسمالية

ولكن أيضاً لإصلاح وتجميل الثقافة الرأسمالية ووصفها بما ليس فيها (إكسابها الصفة الإنسانية)، فمفهوم المواطنة العالمية متحقّق بالفعل ومنذ فجر التاريخ فى الثقافات البشريّة كافة بنظرة "الأنا" أو الـ "نحن" إلى "الآخر" أو الـ "هم"، وتتباين الثقافات فى نسبة التسامح تجاه هذا الآخر، فهى مرتفعة جداً فى الكونفوشيوسيّة وفى الإسلام، وتقل بدرجات كبيرة تصل إلى الامّحاء فى الثقافة الرأسمالية بكل ما لها من تاريخ استعمارى واستغلالى ونظرة متدنيّة للآخر على أنّه كائن من الدرجة الثالثة (جاهل، ومتخلّف، وإرهابى، ورجعى و ... إلخ)، عليه أن يطيع أمر السادة ويفنى من أجل سعادتهم.

إذن المواطنة العالميّة فى ثوبها المعولم ثقافة (مواطنة) استعماريّة، تعمل على غربلة المجتمعات وفرز أفرادها بهدف عزل فئة ذات صفات كونيّة (مواطنو العولمة الجدد)تحت شعارات المصير الإنسانى المشترك، والشرعية الدولية،والسلام العالمى، و ... إلخ.

إن ثورات العولمة خاصة فى مجالى الاتصالات والمعلومات تزيد تقارب الشعوب من بعضها البعض، وتوحّد الكثير من القيم والمفاهيم والأفكار والاتجاهات، ولكنّها لا توحّد الماضى (التاريخ الخاص)، ولا البيئات الجغرافيّة ولا الظروف المعيشية الخاصة (العقليّة والروحيّة والجسديّة)، ومن ثم يصبح من الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل تغيير (توحيد) كل القيم والأخلاق والمعتقدات الإنسانيّة.

ومحاولة توحيد القيم والأفكار والاتجاهات قد تزيد اتساع وعمق وأهمية المساحات الثقافيّة الوطنيّة كردّ فعل، ربما بدرجة أكبر من تلك التى تعمل بها على إلغاءها، فيما يمكن أن يسمى بالتمدّد الثقافى، أى أنها لا تعنى بالضرورة

تآكل أو تقليص أو امحاء الخصوصيّة، فالقيم تتغيّر إلا أن هناك مجموعة من "القيم الثابتة نسبيّاً، مثل الحزم فى المحافظة على القيمة، والاستعداد لاستثمار الطاقة والموارد فى سبيلها، وربط الجزاءات الكبيرة بهذه القيمة (أى قدر الالتزام المتوقّع، وقدر العقاب الذى سينزل بالمعنوى وهكذا)". [1]

ويوجد نوعان للتغيّر القيمى المستقبلى:- [2]

١- **التغيّر القيمى الاشتقاقى** *Derivative*:

ويقصد به تغيّر القيمة الجانبيّة (المساعدة لقيمة أخرى) بتغيّر القيمة الأخرى، فعندما تتداخل القيم مثل "العدل الاقتصادى" "وتكافؤ الفرص"، فإن تغيّر واحدة يعنى عموماً تغيّراً مماثلاً فى الأخرى، وهناك نوع آخر من التغيّر الاشتقاقى، "ويوجد فى القيم الوسلية *Value–Means* وهى قيم معاونة لقيمة غائيّة على نطاق أكبر، فعندما ترتبط قيمة مثل "النظافة" بأخرى مثل الصحّة أو التقبّل الاجتماعى أو الإيمان، ارتباط الوسيلة بالغاية- فإن رفع الدرجة أو خفضها بالنسبة لإحداهما يستدعى تغيّراً مماثلاً فى الوضع الهرمى للأخرى".

٢- **التغيّر القيمى المباشر** *Direct*:

ويحدث تحت تأثيرات أعمال مباشرة وليس نتيجة لتغيّر قيم أخرى وتصنّف هذه التغيّرات المباشرة تبعاً للعوامل المسببة لها.

١) ضياء الدين زاهر، (القيم والمستقبل: دعوة للتأمّل)، مرجع سابق، ص ٢١.
٢) المرجع السابق، ص ص: ٢٥، ٢٦.

عوامل التغيّر القيمى:- [1]

١- التكنولوجيا:-

يؤدّى التغيّر التكنولوجى إلى تغيّر وسائل تحقيق أهداف القيم، فقيمة الصداقة اليوم – على سبيل المثال – يمكن أن تتحقّق عن طريق الراديو والتليفزيون والإنترنت، وقد ساعد التليفزيون كثيراً فى تقديم مجموعة موحّدة من القيم وكذلك الأقمار الصناعيّة، فالتكنولوجيا تصنع مجالاً كبيراً وفرصاً متعددة لتطوير المعرفة الإنسانيّة.

فكل الناس تشاهد الحدث نفسه فى الوقت نفسه وبالطريقة ذاتها الأمر الذى يدفع لتوحيد الفهم والثقافات، فالبشرية تكمل انتقالاتها من الموجه الأولى (الغذاء)، إلى الموجة الرابعة (المعلومات)، والموجة الخامسة (الثقافة).

وكما يرى "توفلر" أن المعرفة عاشت فى المرحلة الأولى فى رؤوس شيوخ وعجائز القبيلة، ثم انتقلت فى مرحلة التصنيع إلى المكتبات المزدحمة بالكتب والآن انتقلت إلى الميكروكومبيوتر، وتتمّ حالياً محاولات الانتقال إلى القرية العالميّة، فالقيمة هى أساس الاختيار الثقافى وهى وسيلة البناء الحضارى والتكنولوجيا عامل حاسم فى تحقيق التغيّر القيمى فى محتواه ودرجته.

٢- العامل السياسى الأيديولوجى:-

ويحدث عن طريق التلقين الفكرى والتغذية العقليّة للقيم المتّسقة مع طبيعة النظام المهيمن، وقد تأخذ هذه العملية شكلاً تدريجياً من الاشتراط إلى الإعلان والترويج *Promotion*، أو تأخذ الشكل الأيديولوجى المكثّف الثقيل.

---

١) المرجع السابق، ص ص : ٢٦، ٣١.

٣- تآكل القيمة بسبب الملل واكتشاف الوهم وردّ الفعل:-

القيمة قد تتآكل عندما تفقد رونقها بعد اكتمال إدراكها العملى، وقد تمّحى بسبب العوالم السوسيولوجيّة، مثل قيمة الكفاية *Effeciency* فى فترة الولع بالتشغيل الآلى، أو قيمة التقدّم فى فترات التوتّر، أو قيمة الأمن الاقتصادى فى عصر الرفاهية، أو قيمة الاستقلال الوطنى فى مناخ الفوضى الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

٤- العامل الدينى:

الدين من أكثر العوامل قدرة على تغيير القيم، فالعقيدة الكونفوشيوشيّة على سبيل المثال طالبت بضرورة تحرّك المجتمع وعدم جموده أو ثباته، وأتاحت للفرد الفرصة للمرور بمجموعة من الخبرات والاختبارات كى يتمكن من امتلاك القوّة والثروة، واستطاعت الصين بذلك أن تحقّق تقدّماً تكنولوجياً سياسيّاً لم يتوفّر لغيرها من دول العالم، والإسلام نجح فى تغيير حياة العرب ومنحهم منظومة قيميّة وأخلاقيّة جديدة وأكسبهم صفة عالميّة كأصحاب رسالة كونية، وعندما تخلّى العرب عن القيم والمعايير الإسلامية حدثت ردّة حضارية وتراجع فكرى، فقد جاء الإسلام كدين وثقافة وحضارة.

٥- المعلومات:-

"كل القيم الوسلية المرتبطة بالازدهار الإنسانى والاعتزاز بالذات تمرّ بعمليّة إعادة تقدير مؤلمة" نتيجة لتغيّر وتطوّر المعلومات والمعرفة.

٦- الحروب:-

تعتبر الحرب بمثابة المخاض الذى يمرّ به المجتمع فيولد من جديد، لذا فهى قادرة على إحداث زلازل وانقلابات فى الأنساق القيميّة وإعادة بنائها وإعادة

تقنينها و ترتيبها، وإعادة توزيعها ونشرها، وهى قادرة أيضاً على إقناع الأفراد والجماعات بنبذ قيم كثيرة، طالما آمنوا بها وساروا على هديها.

٧- الطفرة الاقتصاديّة:-

للطفرات الاقتصاديّة تأثير شديد على الأنساق القيمية، فعلى سبيل المثال حدثت فى اليابان تغيّرات كثيرة فى قيم المجتمع، فقد انتقل من "تقديس الإمبراطور" إلى "تدهور هذا التقديس"، ثم إلى التركيز على قيم "التمييز الفردى"، ثم إلى قيم "المشاركة السياسية وتنميتها".

وفى الخليج العربى أفرزت الطفرة الاقتصادية شخصيّة قوميّة لها إيجابيّات كثيرة مرتبطة بالوعى الاجتماعى والسياسى وبمفهوم الدولة الحديثة المستقلّة، إلاّ أنّها من ناحية أخرى دعمت قيم "الاتكالية" على الدول "الأبوية" من خلال سياسات "الرفاهية الاجتماعيّة"، كما أفرزت قيم الاعتماد على المال وعلى قدرته على شراء أى شئ، والاعتماد على قيمة "المضاربة" لتنمية رأس المال بالإضافة إلى تلاشى قيم العمل اليدوى والمنتج اجتماعياً والاعتماد على العمالة الوافدة، والتحوّل إلى النمط الرأسمالى.

وفى ضوء توجّهات الرأسمالية التوربينيّة وضغوطها الشديدة عل الثقافات الوطنيّة، وبإعلانها الحرب المعولمة المباشرة ضد القوميّات مستخدمة كل الأسلحة الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة،وملوّحة أيضاً بإمكانيات استخدام التصنيف كدول إرهابية أو وقف المعونات والقروض والمساعدات أو الحصار الاقتصادى أو فرض العقوبات أو القوة العسكريّة المباشرة تحت ستار الشرعيّة الدوليّة إذا استدعى الأمر ذلك، تتزايد احتمالات تدويل القيم الغربيّة خاصة فى ضوء الإهمال – المتعمد أو غير المتعمد – لكل ما هو وطنى فى العالم النامى، وتحديداً

فى مجالى الإعلام والتعليم، ففى مصر على سبيل المثال ومنذ بدايات انتهاج سياسة الانفتاح فى منتصف السبعينات، تضاءل الاهتمام بكل ما هو قومى (الدين – التاريخ – التربية والوطّنية – اللغة – الفن) فى كل مراحل التعليم، وفى المقابل تزايد الاهتمام بكل ما هو عالمى وبثقافة السلام، إضافة إلى أن الجامعات المصرية ليس بها إلى الأن قسم لتدريس الحضارة المصرية المعاصرة، ليس بها سوى أقسام تدريس التاريخ القديم [1].

أمّا وسائل الإعلام فلولا استعمالها (المتناقص) للغة العربية لظن المرء أنه يعيش فى بيئة أجنبية، من شدّة اهتمامها بالمسائل العالمية وكثافة أساليب التقليد للغرب، وكثرة البرامج والمسلسلات،والأفلام الأجنبيّة، باستثناء بعض الإذاعات المحلّية(محدودة الفاعلية)،مثل إذاعة شمال الصعيد أو إذاعة وسط الدلتا،لارتباطها المتزايد بالخصوصيّة البيئية، وفى ظلّ التدخّلات الأمريكيّة – الإسرائيلية فى كل شئون الحياة المصرية تتزايد المخاطر على الخصوصيّة القوميّة بصورة لا متناهية فمن المعروف أن إسرائيل تقدّمت - مستعينة بأمريكا – أكثر من مرّة بطلبات للحكومة المصرية لإيقاف إذاعة الأغانى والأناشيد والأفلام الوطنيّة والحماسيّة وأصبح من المستحيل أن تسمع الآن للأغنيات المناهضة للاستعمار والهيمنة مثل "ثوّار لآخر مدى ثوّار" أو "الأرض بتتكلم عربى" إلاّ فى أوقات الخلاف الشديد مع إسرائيل، ولم يعد من الممكن أن تسمع أو ترى شيئاً عن مشاريع الوحدة العربية أو الوحدة الإسلامية إلاّ فى أوقات محدّدة، مثل انعقاد مؤتمرات القمم العربيّة أو الإسلاميّة، كما تقدّمت للولايات المتحدة بالشكوى من مصر فى فترة حكم "نتن ياهو" (وقت تزايد الخلافات المصرية الإسرائيلية)، والاعتراض على احتفالات

١) أنور عبد الملك، (المواطنة فى الثقب –٢)، **جريدة الأهرام**، ١٩٩٩/١١/٢.

انتصار أكتوبر المجيد، ووصفتها بأنّها مبالغ فيها، كما طالبت أكثر من مرّة بإسكات الشيخ الشعراوى يرحمه الله عزّ وجلّ، وبحذف الآيات القرآنيّة الكريمة المتعلّقة ببنى إسرائيل من كتاب النور (القرآن الكريم)، ونشرت الصحف الخاصة أكثر من مرّة أنّها قامت بالفعل بطبع مصاحف حذفت منها هذه الآيات المضيئة وقامت بتوزيعها فى بعض الدول الإفريقيّة، بالإضافة إلى ما هو معروف عن مساندة الغرب (الإسرائيلى) لمناخ التسيّب والانحلال الخلقى واحتضانه للمجترئين على المقدّسات الإسلاميّة والتقاليد الاجتماعية تحت شعار المدنيّة وحقوق الإنسان،ورواية "الخبز العارى" ورواية "وليمة لأعشاب البحر" كانت آخر هذه المهازل، بجانب ما يذاع ويبثّ للوطن العربى خصيصاً من ثقافات الغرب والإباحيّة الجنسيّة (أندية البورنو، وأندية الشذوذ، و ... إلخ).

وللأسف الشديد أن العديد من الأحاديث النبوية الشريفة لا تعرف طريقاً لأجهزة الإعلام إلاّ لماماً على ألسنة علماء الأزهر أو المشايخ، على الرغم من أنّها تذكّر بفضل المسلم على غيره وتغرس معانى الفضيلة والطهارة والكرامة وتؤكّد حتمية الحرص على التكافل الاجتماعى ومساعدة المحتاج والمساواة بين الناس، فى حين أنها كانت داخل دوائر الترويج أيام المدّ الاشتراكى (توظيف الدين لخدمة الأيديولوجيا)، فى الوقت نفسه الذى لا تألو فيه أجهزة الإعلام جهداً لخدمة المتشدّقين بالفوائد الاجتماعيّة لنظام السوق.

بداهة، إن مفهوم العالمية ينبثق من المحليّة وإلاّ فكيف يستطيع المرء أن يتواصل مع الآخر (العالمى) وهو غير قادر على التواصل مع نفسه (المحلّى)، أى مع بيئته ومجتمعه وظروفه، لقد كانت الإمبرياليّة قيمة وطنيّة فى الثقافة الغربية (إمبراطوريّة الرجل الأبيض) تنادى بحروب السلام الضارية واتساع مناطق النفوذ

والسيطرة، وتشعل فى نفوس الغربيين نوازع العداء والهجوم للحفاظ على التفوّق والرفاهية من جيل إلى آخر، وقد كان الكبرياء البريطانى من الناحية العملية (وطنية إمبريالية)، والإمبريالية الفرنسية (وطنية ثقافية) عملت على دمج واستيعاب المحتل بتعليم اللغة والثقافة الفرنسية من السينجال إلى (فيتنام) ومازالت الوطنيّة الفرنسية قائمة وهذه المستعمرات ومن المتوقّع أن تستمّر أيضاً كسمة بارزة فى القرن الحادى والعشرين. [1]

معارك المواطنة والهويّة:

إذا كان البعض يرى أن معركة الهويّة تدفع المجتمع للتوجّه إلى الداخل أكثر من اللازم على حساب الانفتاح على الخارج، وإضاعة الجهد والوقت والإمكانيات التى يجب تكريسها لمعركة التنمية والتقدّم. فقد ظلّت اليابان على سبيل المثال ومنذ نصف قرن تنقل وتستوعب وتطوّر التكنولوجيا فى الوقت نفسه الذى كانت فيه حكومات الجنوب مشغولة بمعارك تأكيد الهويّة [2] الأمر الذى يفهم معه أن اللهات خلف القوميّة قد يفضى إلى المزيد من التخلّف، نقول إن المقصود ليس استنفاد الطاقات والقدرات من أجل التمسّك بالهويّة بقدر ما هو توجيه لهذه الإمكانات/الطاقة بوقود وخامات الوطنية صوب التطوّر والتقدم والتجديد والابتكار، وعناصر الهويّة تعمل بطبيعتها كقوى دافعة للتقدّم والتفوّق (من الداخل)، كما أنّها تتصدّى بقوّة دفعها الذاتى للمدّ الثقافى (من الخارج).

إن المواطنة هى ضمير الفرد الذى يشكّل معظم شخصيّته وتكوينه (الانتماء/ الموالاة/ الالتزام). [3] وفى ظلّ العولمة يصبح الاختيار بين إثبات (إنتاج)

---

١) على مزروعى، (الوطنية العربية فى القرن ٢١: ستظهر مرّة أخرى وستسقط)، **مجلة المعرفة**، العدد ٥٦، السعودية، الرياض، سنة ٢٠٠٠، ص ص: ٨٦، ٨٧.

٢) محمد رؤوف حامد، (التكنولوجيا بدلاً من حبل المشنقة)، مرجع سابق، ص ١٧.

٣) محمود سفر، (المواطنة انتماء لعقيدة)، **مجلة المعرفة**، العدد ٥٦، السعوديّة، الرياض، سنة ٢٠٠٠، ص ٩٤.

الذات أو إثبات (إنتاج) الآخر حدّاً فاصلاً بين الحرية والتبعيّة، وبين المقاومة والاستسلام، وبين التنمويّة والاستهلاكيّة، وبين التقدّم والتخلّف، ولم يعد فى مقدور أى مجتمع أن يتفادى مسيرة القطيع الإليكترونى أو يرفض التعامل معه "فالعولمة وضع كونى وكل وضع كونى ينتج أيديولوجيته وسرديّاته الكبرى ونحن جزء من هذا الوضع الكونى، وربّما نشارك فى صياغة هذه السرديّات ونعضّد بعضها، حتى لو كانت هذه السرديّات قديمة متآكلة تنتمى لبرهة سالفة تجاوزها العالم، العولمة مثلاً تنزع إلى توحيد ثقافة العالم فى ثقافة واحدة تنمّط الخبرة وتضيّق من سعة العالم، طرائق واحدة للباس، وطرائق واحدة للطعام، ونظرة واحدة إلى السلعة، و ... إلخ، ليس هذا فقط هيمنة لثقافة جماعة بعينها، وليس فقط إفقاراً للتنوّع البشرى، بل هو تقليص لخبرة البشر ومصادرة للحقّ فى الاختلاف، ولذلك لابد من العمل على تنويع ثقافات البشر"[1] وزيادة هذا التنوّع ودعم كل ما هو مختلف، وتلك إحدى مهام التربية.

وهناك العديد من الإستراتيجيّات لإحياء وتنشيط وتفعيل الهويّة. فأحد أهم أسباب نجاح قيام واستمرار إسرائيل هو اتباع "النستولوجيا السياسية"، أى المثال التاريخى بمعنى إيجاد ذاكرة مثالية عن الماضى مع الرغبة الشديدة فى إحيائها والتمسّك بها، وتم دعم الوطنيّة الأرمنيّة بتنمية الإحساس بمآسى المذابح التى لقيها الأرمن على يد العثمانيين عام ١٩١٥م، وهو ما يعرف بإحياء وبالحفاظ على ذاكرة "سلبيّة عن الماضى"، وقد جعلت مدارس إسرائيلية معينة رموزها وإيحاءاتها من المآسى الساميّة فى مذابح "الهلوكوست"، كما أن عناصر الوطنيّة تنمو من خلال "الصراع والخلاف" كما هو حادث بين الهند وباكستان، و"الوطنيّة

١) محمد بدوى، (تجيد الذهن العربى)، مرجع سابق، ص ٣٩.

اللغويّة" من أهم عوامل الشعور بالذات وأوضح الأمثلة على ذلك الشعب الفرنسى وتركيزه على الافتخار بلغته وبمنجزاته الأدبيّة فى مواجهة الآخر، بل وبالانفصال عنه أيضاً (الاستقلال) كإقليم كويبك فى كندا، والعرب من أهم القوميّات اللغويّة، وتنشط الوطنية أيضاً بتأثيرات العنصر كما حدث فى أوساط السود وحركات مثل "تيجر تيود" و"القوّة السوداء" و"مدارس الوحدة الأفريقية"، وقد كانت القيم الإمبريالية (الاستبداد) عاملاً حاسماً فى نجاح الغرب: "إمبراطورية الرجل الأبيض"، "تحمّلوا مسؤوليّة الرجل الأبيض"، وقد حاولت اليابان أن تدخل بقية آسيا تحت مظلّتها الوطنية بشعارات : "المشاركة والازدهار" ومطالب "اتركو آسيا". (١)

الحماية الهادئة والانفتاحية:-

قد يكون من غير المفيد إعلان الثورة والتحدّى تحت أعاصير العولمة المدمّرة التى تفرض على الشعوب النامية - من وجهة نظر الكاتب - اتباع إستراتيجية "الحماية الهادئة" تأميناً لصحة المسيرة وسط أنواء ورياح الرأسمالية الطائشة وتجنّباً لردود الفعل العنيفة.

قد لا يتطلّب الأمر سوى تنشيط ذاكرة المقاومة الفكرية فى إطار التنمية الثقافيّة الشاملة، ونحن فى عالمنا الإسلامى نمتلك كل سبل تفعيل الهوية، حسبنا فقط فرد المظلّة الإسلاميّة فوق رؤوسنا، اللغة (القرآن الكريم) والأحاديث النبوية الشريفة، والشعر العربى، و ... إلخ)، النماذج التاريخيّة الصراع الحضارى، ... إلخ، على النظم التربويّة إذن (الأسرة/ المدرسة/ المسجد/ وسائل الإعلام/ الجمعيات الأهلية/ ...) تطعيم أفراد المجتمع باللقاح الثقافى:-

١) على مزروعى، مرجع سابق، ص ص : ٨٤، ٨٩.

- غرس المزيد من عناصر الخصوصيّة القوميّة فى الأفراد(الأطفال بصفة خاصة).
- نشر وتوضيح مفاهيم المواطنة المحلّية والعالميّة والفارق بينهما.
- نشر وتوضيح طبيعة العلاقة بين الثقافة والبيئة (زمانياً ومكانياً)
- نشر وتوضيح طبيعة العلاقة بين الثقافات البشريّة عبر التاريخ
- إبراز ميزات وعيوب كل ثقافة على حدة، فى ضوء المقارنة مع الثقافة الأمّ
- توضيح أهمية الهويّة بطريقة عمليّة، خاصة باستدعاء النماذج التاريخيّة.
- تدعيم قدرة الأفراد على المقارنة بأسلوب علمى سليم.
- تدعيم قدرة الأفراد على الاختيار فى ضوء المفاضلة.
- توضيح طبيعة التغيّرات العالمية وعلاقتها بالثقافة
- إبراز الأهمية المتزايد لدور الثقافة فى النظام المعولم.
- توضيح الفوارق بين التعصّب والمرونة (الانفتاح والتقوقع)
- توضيح ونشر وترويج الفوارق بين الاستقلالية والتبعيّة.

ربما لا يتطلّب تنشيط معظم فعالية ذاكرة المقاومة الوطنية لا يتطلب مالاً كثيراً ولا جهداً يذكر، فمنها- على سبيل المثال- اقتراح الأستاذ الدكتور مصطفى رجب بإيجاد درجة علمية تعدل درجة الـ "*Toefl*" فى اللغة العربية كشرط من شروط التقدّم للدراسات العليا فى مواجهة شرط "*Toefl*" اللغة الإنجليزية، ويعود هذا الاقتراح بالنفع المادى أيضاً والذى يمكن توجيهه لتفعيل الأنشطة اللغويّة، وإن لم يكن هذا هو الهدف النهائى، ومنها زيادة الاهتمام بالتعليم الدينى كمّاً وكيفاً فى مواجهة التعليم الأجنبى.

ومنها أيضاً ضرورة تركيز وسائل الإعلام على قادة الفكر والعلم والفن كنجوم للمجتمع (قدوة ومثل أعلى)، وليس على لاعبى الكرة والفنانين فقط وكذلك تشجيع البرامج الجادة والمسلسلات ذات الطابع القومى والتاريخى بصفة خاصة - فى ثياب حضارية شيّقة مرتبطة بخصوصيّة الفكر الوطنى والبعد بقدر الإمكان عن البرامج التافهة والمسلسلات المفرغة من أى مضمون حقيقى، والتقليل بقدر الإمكان من طرق وأساليب محاكاة المضامين والأشكال الأجنبية.

وقد لا يخرج تنشيط ذاكرة الثقافة الوطنية بأية حال من الأحوال عن التخلّى عن قيم الفساد (الرشوة، والمحسوبية، والشللية، والمنفعة الشخصية والمؤامرات التحتية، و ... إلخ).

التربية ومجتمعات ما بعد الصناعة:

إن التكنولوجيا تتطوّر بسرعات مذهلة لا تقف عن حدّ السيطرة على الحاضر فقط، بل تمتد وبكثافة متزايدة لتشكيل المستقبل على الهيئة التى تريدها، لدرجة أن الألعاب الإليكترونيّة وحدها أصبحت. تعيد صياغة منازلنا وحياتنا نفسها، بعدما تطوّرت فى أقلّ من عشر سنين من مجرّد لعب للأطفال *Toys* تغلب عليها صفات البراءة والتبسيط *Simplistic* والطفولية، عبر آلة الخيال *Imagination Machine* التى أنتجتها شركة "فيليبس"، ومشغل الألعاب ذات الأبعاد الثلاثية الذى أنتجته شركة "*3Do*" وبمساعدة أقراص الليزر المدمجة *CD-Rom*، إلى عزف الموسيقى، وتشغيل الأفلام، وعرض الكتب الإليكترونيّة

والاتصال عبر الكوابل التليفونيّة، لقد أصبحت هذه الألعاب تتميّز بكل ما تتميّز به تكنولوجيا الإنفوميديا: القدرة، والمرونة، والتكيفيّة *Adaptability*. (١)

ومن المنتظر أن تتزايد سيطرة الإنفوميديا على حياتنا ومستقبلنا من خلال التغيرّات المتزايدة السرعة للأجهزة الجديدّة (الذكيّة) *Smart Appliances*، فى غضون خمس سنوات فقط، مثل مشغّلات الأقراص المدمجة *CD-Players* فسوف يمتزج التليفزيون والكمبيوتر والتليفون على نحو أكثر تجانساً وتتداخل وظائف ومهام هذه الأجهزة مع بعضها البعض على نحو أفضل بحيث يمكنك – مثلاً – أن تتجوّل فى المراكز التجارية الإليكترونيّة أو تتسوّق وتشترى احتياجاتك وتنجز مسؤولياتك وشؤونك من خلال "التليفزيون الذكى"، حتى لو كان المتجر أو المصرف مغلقاً، وسوف تسمع وترى آخر الأخبار أو تشاهد أى فيلم أو أى برنامج وقتما تريد أنت، أمّا تعليم الأطفال فلن يكون محصوراً داخل المدرسة أو داخل الفصول والقاعات الدراسيّة. (٢)

وسوف يزيد تصاعد قيم المتعة التكنولوجيّة *Techno-treat* باستمرار أمّا الفصائل البشريّة التى تتبنى قيم كراهية التكنولوجيا *Techno-Averse* (وهى فئات قليلة) فسوف تمضى إلى الاختفاء السريع، إن موقفك أو مكانك فى مدرّج التقبّل التكنولوجى *Techno-Receptivity Scale* لم يعد له أيّة أهمية أمام هيمنة *Hegency* التكنولوجيا عليك وعلى منزلك وعلى عائلتك. (٣)

والتكنولوجيا باعتبارها تركيباً اجتماعياً تؤكّد وبشدّة على حراك القيم وعلى الحراك الاجتماعى، فالسيارات على سبيل المثال أزالت الكثير من

---

١) فرانك كيلش، (ثورة الإنفوميديا، الوسائط المعلوماتيّة وكيف تغيرّ عالمنا وحياتك)، ترجمة: حسام الدين زكريا سلسلة كتب: **عالم المعرفة**، العدد ٢٥٣، الكويت، سنة ٢٠٠٠، ص ص: ١٧٠، ١٧١.
٢) المرجع السابق، ص ص: ٤٤١، ٤٤٢.
٣) المرجع السابق، ص ٤٤٣.

الحواجز بين الطبقات، والأسلحة الحديثة تهدّد العالم بنظام استبدادى أبشع وأشدّ طغياناً من أى نظام سابق، والأجيال الجديدة فى البلدان الصناعيّة تشعر أنّها أكثر حرية من أجيال الآباء، وعلى الرغم من كل التناقضات الدلاليّة فإن القسط الأكبر من هذه الحريّة مستمدّ من الكفاءة التكنولوجيّة الحديثة (النقل، والاتصال، والإنتاج، و ... إلخ).[1]، أمّا فى العالم النامى فتصل تأثيرات التكنولوجيا إلى درجة الخلع التام من البيئة الوطّنية (اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً) وخلق أجيال على هيئة مسوخ غربيّة تابعة ومشوّهة تحت شعارات التقدّم والتحضّر، وهى فى حقيقة الأمر لا تأخذ سوى القشرة الحضاريّة الظاهرية، ومن ثم تصبح حريتها وقيمها الجديدة مجرّد أكاذيب زائفة.

وكما أن للتكنولوجيا فوائد كثيرة للقيم والمجتمع فإن لها أيضاً سلبيّات كثيرة فهى على سبيل المثال. تعمّق وتكرّس الفجوة بين الأغنياء والفقراء لأنّها تتوجّه وتتواجد حيث تتوفّر الإمكانيّات الماديّة اللازمة، أى عند من يقدرون على تحمّل تكاليفها، أمّا غير القادرين فيتحوّلون خارج الدوائر باستمرار وتتسع المسافات بينهم غير أن هناك محاولات لتحويل بعض استخدامات التكنولوجيا الحديثة إلى "حق مكتسب" بقدر الإمكان، فشركة *Video Wax* اتخذت قراراً بعدم تحصيل أى رسوم للدخول على شبكات التسويق، وشركة *Bell Atlantic* تخطط لتحصيل أجر رمزى للدخول على شبكات التسويق، على أن يكون ذلك بمثابة الإعلان لهذه الشركات مقابل تحصيل الرسوم على خدمات أخرى، فمن بين هذه الخدمات الأساسية (المجانية) أن الفرد يستطيع أن يتصل هاتفيّاً إذا كان فى حالة طوارئ أو مواقف حرجة، أمّا حرمان الناس من استئجار فيلم

---

١) آر. إيه. بوكانان، (الآلة قوة وسلطة، التكنولوجيا والإنسان منذ القرن ١٧ حتى الوقت الحاضر)، ترجمة: شوقى جلال، سلسلة كتب: **عالم المعرفة**، العدد ٢٥٩، الكويت، سنة ٢٠٠٠، ص ص : ٢٣٣، ٢٣٤.

فيديو أو ألعاب فيديو فلن يهدم حياتهم، فمن غير المعقول أن تتخيل أن خدمات الإنفوميديا ضرورية [١].

الأمر إذن أبعد ما يكون عن الحقوق المكتسبة، فهو لا يخرج عن النفعية بالإعلان ومحاولة تصوير أصحاب رؤوس الأموال فى إطار إنسانى، إضافة إلى محاولات تهدئة وإقناع غير القادرين بعدم أهمية أو ضرورة الإنفوميديا لحياتهم.

إن التكنولوجيا هى السبيل الوحيد لتقدّم المجتمع ورفاهيّته واحتلاله مكانه الطبيعى على خارطة عالمنا المعاصر، غير أن الأمر لا يتوقّف عند حدود نقل التكنولوجيا من الغرب فقط، أو محاولة النهوض بالتنمية الوطنيّة من خلال نماذج تقليد الرأسمالية كما تروّج أجهزة الإعلام فى مجتمعاتنا النامية، فالغرب لن يسمح بهذا النقل إلاّ بشروط كثيرة وفى حدود التقليدى الزائد عن حاجته أو الذى يريد التخلّص منه وفى معظم الحالات يضرّ بالآخر أكثر مما يفيد والانفتاح الزائد عن الحدود على العالم، قد يمنح الفرصة للغرباء للتحكّم فى المقدّرات الوطنيّة، ، وكان هذا أحد أسباب أزمة النمور الآسيوية [٢] لقد تحوّلت "تنانين" شرق آسيا إلى أبطال جماهيريين محليّاً وعالمياً كقدوة للبناء النامى وتطوير الصناعات وتحقيق معدّلات نمو مرتفعة، وفى ضوء معدّلات الأداء الاقتصادى الجيد، تحوّلت النمور إلى "أوز طائر" حتى أزمة خريف عام ١٩٩٧ والتى أظهرت هذه الطيور على حقيقتها مخدّرة بطاقة وهميّة وبدأت طيور الأوز الآسيوى فى السقوط والقيام بحثاً عن دوائر جديدة.

---

١) فرانك كيلش، مرجع سابق، ص ص : ٤٩٦، ٤٩٧.

٢) لويس بابيك، (النص والسياق فى تأصيل التنمية)، ترجمة: حسن حسين شكرى، **مجلة مستقبليات**، المجلد ٢٩ العدد ٤، مركز مطبوعات اليونسكو بالقاهرة، سنة ١٩٩٩م، ص ٥٢٧.

وتعتبر النزعات الإمبرياليّة (العرقيّة/العنصريّة/التفوّق/التعالى/ ...) قيماً أساسيّة فى الثقافة الغربيّة، ولن يقبل الغرب مجرّد التفكير فى التخلّى عنها كما يعبّر "كيبلينج" : الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا أبدا، وكما يعبر هنتنجتون بتقسيم البشر إلى نوعين : الغرب والباقى *The west and the rest* وكل ما يروّجه الغرب عن مفاهيم "المشاركة،والسلام/ ومساعدة العالم النامى، حقوق الإنسان، ... إلخ"، ما هو إلاّ غطاء يخفى توجّهات الرأسماليّة التوربينيّة التى تهدف إلى تجميل وجه الغرب، وتسهيل مهمة الاستعمار المطوّر/المعدّل (العولمة). (١)

لقد اضطرت إسرائيل أن تسرق كل تصميّمات طائرات الميراج الفرنسيّة لتقليدها، لرفض فرنسا التعاون معها (إعطائها التصميمات) فى ذلك الوقت، أمّا تقليد النماذج الرأسمالية فقد أصبح فى حكم اليقين أنّه لا يفرز سوى تحسّن ظاهرى رقمى على الأوراق فقط، بينما يؤدّى إلى كوارث متعدّدة على أرض الواقع منها زيادة التباين الطبقى، زيادة نسب البطالة، وانخفاض مستويات الرعاية الاجتماعية والصحية و .. إلخ، بالإضافة إلى بقاء المجتمع تحت رحمة تقلّبات السوق ومشاكل الرأسمالية الشهيرة،منها الركود، والأزمات المالية والفساد، و... إلخ، وأوضح الأمثلة على ذلك ما حدث فى إفريقيا وآسيا.

القضيّة إذن قضية التوجيه والتكييف الاجتماعى للتكنولوجيا جنباً إلى جنب مع قضايا النقل أو التقليد أو التوطين أو التطوير التكنولوجى، وهو ما يعنى حتمية التوجّه الدينى والاجتماعى للعلم والتطوّر بالنسبة للمجتمعات الإسلاميّة والدينية بصفة عامة، "فإذا كانت المعرفة فى حدّ ذاتها تمثّل لدى الإنسان حاجة عقليّة ملحّة تدفعه دفعاً إلى التماس الحقيقة فى كل مظهر من

١) أحمد فؤاد باشا، (الإسلام والعولمة)، **كتاب الجمهورية**، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ص : ١٣٥، ١٣٦.

مظاهر الوجود، فإنها فى الوقت نفسه تستمدّ قيمتها من حصيلة مردودها للمجتمع البشرى، وتتوقّف هذه الحصيلة بطبيعة الحال على درجة استيعاب الإنسان لعلوم عصره وحسن استخدامه لها وفق مقوّمات ثقافته ومنهج تفكيره وفى إطار القيم والمعايير والضوابط التى يرتضيها المجتمع أساساً لتوجيه السلوك ورسم خطى التقدّم والرقى" [1]، ويعد هذا هو السبيل الأخير لتحقيق التقدّم على أسس وطنية (مرتبطة بالمجتمع) تسمح بالانطلاق إلى أفق أكبر من ذاتية التوجيه نحو إنجاز وابتكار علوم خاصة بالمجتمع، وكان هذا هو السبيل الذى أخذت به اليابان والصين وكوريا وإسرائيل. [2]

والخلاصة مما سبق تجمل أو تفصّل فى حتمية الربط بين التوجّه الاجتماعى ومطالب الاهتمام أو التركيز على العلوم الطبيعية والمناهج العلمية (الرياضيات والعلوم) التى تزايدت تحت ضغوط العولمة، وهذا يعنى ضرورة الاهتمام أيضاً بالعلوم الإنسانية (المحلّية) مثل التاريخ والتربية الوطنية واللغة القوميّة، والتى هى فى حقيقة الأمر من أهم الأسلحة لمقاومة آثار العولمة السلبية (توحيد الثقافات وتدويل القيم الرأسمالية).

الثورة التكنولوجية إذن مسئولية المجتمع كلّه وليس نظامه التعليمى فقط، وإن كان هو العمود الفقرى لهذه الثورة، فهو (أى تعليم) حلقة فى سلسلة لابد أن تتفاعل وتتعاون وتتكامل معها بقية الحلقات (المؤسسات التربوية)، فمن أهم طرق مواجهة تحديات وضغوط العولمة – من وجهة نظر الكاتب – القدرة على تطويع وتسخير العالمى لخدمة المحلّى، وسرعة البدء فى ترميم الصدوع الثقافيّة التى أحدثتها حملات وغزوات الرأسمالية وغيرها، ثم تطوير وتجديد

١) أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص ١٤٧.
٢) المرجع السابق، ص ١٤٨.

البناء الثقافى وإكسابه المزيد من عناصر الصلابة والمرونة والمقاومة، مثل تغذية الكيان القومى، بتوظيف أجهزة الإعلام لخدمة البيئة الوطنيّة (ثقافياً واجتماعياً و ... إلخ)، وإنتاج برامج متطوّرة عن ثقافة المجتمع وتاريخه وقيمه وترويجها عبر أجهزة الإعلام المختلفة، والتصدّى للمعلومات الخاطئة أو المزيّفة التى تبث عبر الأقمار الصناعية أو الإنترنت أو ... إلخ، ويمكن إجمال كل هذا فى:-

- إعداد وتدريب كوادر ثقافية واعية قادرة على استيعاب التكنولوجيا المعاصرة وتوظيفها لخدمة المجتمع.
- الاهتمام بـ، والتركيز على كل ما ينمّى الحسّ القومى.

فالثورة التكنولوجية والتقدّم العالمى والتطوّر لا تتحقّق إلاّ فى إطار الخصوصيّة الذاتية، وفلسفة التعليم فى العالم المتقدّم تتلخّص فى اعتباره مسؤولاً عن تأصيل وتحديث الهويّة الثقافية [1]، وتخضع مؤسسات التعليم فى كل الدول المتقدّمة لمراجعات وفحوص مستمرّة للكشف عن مواطن القوّة والضعف، والتعرّف على مستويات الأداء الحقيقية والقدرة على تحقيق الأهداف وبصفة خاصة القدرة على الجمع بين تحديث وتأصيل الثقافة الذاتيّة فى نفوس النشء، وكان هذا هو مضمون المشروع القومى الأمريكى " أمّة فى خطر" عام ١٩٨٣، الذى ارتأى أن قبول تدنّى مستويات التعليم عمل بلا فكر ونزع لسلاح التعليم، وأن هذا التدنّى لو فرض من قوّة معادية لاعتبر مدعاة للحرب، وقد كان رفع مستويات التحصيل الدراسى هو السلاح الحقيقى الذى واجهت به أمريكا التحدّى السوفيتى بإطلاق القمر الصناعى سبوتنيك للفضاء عام ١٩٥٧. [2]

١) المرجع السابق، ص ص : ١٤٩، ١٥٠.
٢) أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص ١٤٨.

إن تطوير الهيكل الثقافى للمجتمع يكتسب – فى ظلّ تحديات العولمة أهميّة متزايدة باضطراد. فالفضاء المعلوماتى يتمدّد ويتّسع بصورة يصعب السيطرة عليها وتصنع عالماً جديداً [1]، يهدّد بانقراض العديد من المجمعات القديمة الجامدة غير القادرة على مسايرة التطوّر، والثقافة وحدها هى القادرة على استيعاب المفاهيم التقنيّة للتقدّم وهى أيضاً المعطّلة لمسيرة الوعى الإنسانى الساعى للتجديد [2] (حال ثباتها وتخلّفها)، وفى ضوء كثرة المعاهد والمؤسسات المعلوماتيّة (الكمبيوتر، والتحكم عن بعد، و ... إلخ) الحديثة النشأة فى مجتمعنا، والأقسام المعلوماتية الحديثة النشأة داخل المؤسسات الوطنية، يجب دمج هذه المؤسسات والأقسام بالكليّات والأقسام المعنيّة بدراسة ثقافتنا الوطنيّة (التاريخ، والأنثروبولوجى، واللغة العربيّة، والجغرافيا، و ... إلخ)، لتخريج فنيين ذات مهارات عالية للتصدّى لهذا الفضاء المعلوماتى ولغزوه أيضاً، وقد آن الأوان من وجهة نظر الكاتب – لتضمين أصول (أو على الأقل بعض مسلّمات) فنون السينما، والمسرح، والغناء، والتشكيل، و ... إلخ فى المناهج الدراسيّة وبرامج الإذاعة والتليفزيون و... إلخ، من أجل تنمية الذوق الفنّى لدى الطلاب، مع توضيح الفوارق بين القومى والعالمى، والجيد والردئ، من أجل تنمية الذوق الفنى لدى الطلاب وحتى يمتلك الأفراد القدرة على الفرز والمفاضلة والانتقاء فى ضؤ معايير صحيحة، مما يساعد على تنمية الحسّ القومى الراقى من ناحية، ويدفع الأجهزة الإعلامية إلى تطوير نفسها من ناحية أخرى.

وعمليات تطوير الهيكل الثقافى للمجتمع تفرض توافر عناصر التجانس الفكرى بطريقة لا تدع فرصة للتأويل أو للتميع. فعمليّات التثقيف وتنمية المواهب

١، ٢) جاب الله موسى حسن، (ثقافة العجز)، **مجلة سطور**، العدد ٤١، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ٢٥.

فى أكثر من مجال لا يمكن أن تتحقّق أو أن تنمو وتصبح قادرة على الاستقلال إلاّ عندما تخضع التصرّفات والتساؤلات المختلفة لطبيعة مجتمع موحّد وتوجّه واحد، فالمناهج المدرسية على سبيل المثال يجب أن تبنى وتحتوى على توجّه معنوى واحد فقط، ويجب أن يكون واضحاً للجميع[1]، وكذلك بقية المصادر الثقافيّة

البديل الوطنى:-

من غير الممكن – على سبيل المثال – إيقاف سيل أفلام البورنو أو عروض الاستربتيز العالميّة فى ظلّ انفجار أو تمدّد الفضاء المعلوماتى الكونى، والممكن الوحيد فى مثل هذه الحالة هو البديل الوطنى، لتوضيح خطورة قيم الإباحيّة المرضيّة والاجتماعيّة، وتوضيح فضل طهارة المرأة والرجل فى المنهج الإسلامى وعلاقة العفّة بالنسب وبناء الأسرة والمجتمع، من خلال أساليب واعية ومتطوّرة وغير منفّرة وقادرة على الإقناع.

فتحديات الفضاء المعلوماتى تفرض حتمية المشروع المعلوماتى القومى بحشد الطاقات والإمكانات الفكريّة والماديّة كافة، ليس فقط لتحميل المعلومات على أجهزة الإنترنت أو بثّها عبر الأقمار الصناعيّة الأجنبيّة، لكن لصنع الكومبيوتر الوطنى وقاعدة الفضاء الوطنيّة وإطلاق القمر الصناعى الوطنى كما فعلت الصين واليابان والهند، بدلاً من سياسات استئجار القنوات الفضائيّة أو شراء الأقمار الصناعيّة المعمقّة لمفاهيم التبعية والتى لا تؤكد فقط عدم القدرة أو الرغبة فى العمل والتقدّم، بل تؤكّد أيضا فكرّة تفوّق الآخر وضرورة الاستسلام له.

1) William Martin, With God On Our Side, Broodway Books, New York, U.S.A; 1996, p.125.

إن صناعة الفضاء والمعلومات ليست فقط المصدر النهائى لإنجاز التقدّم وكسر قيوده الزمانية والمكانية، ولكنها أيضاً ضرورة لا غنى عنها لإعادة هيكلة الفضاءات وتحقيق الذات والحفاظ على خصوصيّة الكيان وتقويته " فالثقافات المهجّنة لا تقدّم بالضرورة حسماً للتناقضات بين ما هو كوكبى وما هو متمركز مكانها، فالحسم ذاته فى ظلّ ظروف التبادل غير المتساوى قد يكن أكثر انحيازاً للفضاء عنه للمكان، وللقوّة المجرّدة عنه للوجود اليومى حيث يولّد الأوّل اختلافات الثانى فى صيرورته للوصول بقوّته إلى الدرجة القصوى، وهنا يصبح الإصرار على ما هو متجذّر فى الأرض وثابت والدفاع عن الطبيعة أمراً استراتيجياً كى تصبح القرارات المضادة لتناقضات الثقافة المهجّنة ممكنة، فعلينا التوجّه نحو إعادة غزو الفضاء بواسطة المكان كهدف لا حيدة عنه، وهنا أيضاً تكتسب حركات الحفاظ على ما هو أصلى *Indignism* والحركات المستوحاة منها أهمية غير مسبوقة لإعادة تأكيد المتجذّر فى الأرض وأيضاً لما تقدّمه فى سبيل إعادة هيكلة الفضاء [1]، فالمعلومات أصبحت مصدر السلطة فى العالم الذى تسيطر عليه الآن "شبكة الطرق السريعة للمعلومات *Information Super High Ways*" المعروفة باسم *Internet 1*، أمّا *Internet 2* فسوف يندمج فيه العالم كلّه (اتصالياً وثقافياً واقتصادياً وإعلامياً وسياسياً) ويصبح عالماً مكشوفاً. [2]

فثورة تكنولوجيا المعلومات والفضاء تخطّت ومنذ زمن غير قصير مجال الإعلام والاتصال إلى خدمة التنمية : الزراعية والصناعية (التعدين والكشف عن الثروات)، وخدمات الملاحة البحريّة والجويّة و...إلخ، أى أصبحت شرطاً حيوياً

١) آريف ديرليك، مرجع سابق، ص ١٩.
٢) أحمد محمد صالح، مرجع سابق، ص ٢١.

من شروط التنمية فى القرن الحادى والعشرين، وإذا كان على المجتمع تهيئة المناخ وتوفير الإمكانات اللازمة، فإن المسؤولية الكبرى تقع على عاتق النظام التعليمى لحدوث ونجاح هذه الثورة ولاستمرارية فعاليتها أيضاً (بالاشتراك مع النظام الصناعى)، ويعد الاهتمام بالتعليم الفنّى والإعلاء من قيمته وربطه بمراكز الإنتاج الركيزة الأساسية لوجود مثل هذه النهضة منذ بدايات الثورات الصناعية، فقد " قادت الدولة الفرنسية الطريق إلى التجديد بعد الثورة عام ١٧٨٩م بأن أنشأت المدرسة الفنيّة متعدّدة التخصصات "البوليتكنيك"، وأعقبتها "بروسيا" بأن أنشأت معاهد رفيعة المستوى للتعليم التكنولوجى، وتبنّت معاهد "المنحة الأرضيّة *Land Grant Colleges*" فى الولايات المتحدة موضوعات تقنيّة عند تأسيسها، وقامت السويد أيضاً بدور رائد فى مجال التعليم التكنولوجى فى جامعتها التى تأسست عام ١٨٩٢" [١]، وما زال هذا التعليم يحتلّ موقع الصدارة فى معظم الدول المتقدّمة، ويشغل ما يزيد على ٦٠٪ تقريباً من الحجم الكلّى للتعليم.

لقد "توازى نمو النشاط التكنولوجى فى العالم الحديث مع نمو العلم فى ترابط وثيق بين الاثنين، ولكن يتعين الإقرار بأن الاثنين ظاهرتان متمايزتان، وإن ارتبط بعضهما ببعض، فالعلم معنى بالمعرفة وبفهم طبيعة البشر فى بيئتهم، بينما التكنولوجيا معنيّة بصنع وعمل الأشياء، أى معنيّة بالطريقة التى يغيّر بها البشر بيئتهم" [٢]، كما أن "تطوّر المعرفة العلمية ينزع إلى التحرّك فى طفرات أو "نقلات

١) أر. إيه. بوكانان، مرجع سابق، ص ٢٤٣.
٢) المرجع السابق، ص ص : ٢٤٤، ٢٤٥.

للإطار الفكرى"، بينما الخبرة التكنولوجية يغلب عليها الطابع التراكمى فى صورة آلية متدرّجة ومتشابكة". (١)

التدريب والممارسة:

تفرض تحديات تكنولوجيا الموجة الثالثة (مجتمعات ما بعد الصناعة) حتمية تطوير النظم التعليميّة فى العالم النامى بصفة عامة، والمراحل التعليمية الأساسيّة فيها بصفة خاصة، وبحيث ترتكز آليّات هذا التطوير على برامج تعليمية مكثّفة ومخططة بعناية لتدريب الأجيال الجديدة على التقنيات فائقة القدرة وإعدادها للممارسات الابتكاريّة، ويعد هذا التدريب ضرورة لا غنى عنها لإعادة تأهيل وتوجيه العمالة التى يتمّ الاستغناء عنها فى سياق سياسات إحلال العقول الإليكترونية، أو باتباع سياسات الخصخصة أو بتفضيل الصناعات ضئيلة العمالة البشرية. فوجود الأساس المتطوّر القوى للتعليم العام فى ظلّ العولمة يعتبر مطلباً حيوياً للأسباب الآتية: (٢)

١- إنه يوفّر المعرفة النظريّة والعمليّة للحرف المهارية التى تزداد تعقيداً فى ظل التغيرات التكنولوجيّة المتتابعة.

٢- إن الكفاءة فى الصناعات والخدمات الحديثة لا تتوقف فقط على الإنتاج، وإنّما تتطلّب مهارات راقية ومتجدّدة طوال الحياة العملية.

٣- إن التعليم العام، خاصة المرحلة الثانويّة يمكن أن يشجع الأعمال الحرّة وتحسين الإنتاج.

---

١) المرجع السابق، ص ٢٤٦.

٢) وادى. د. حداد، (عولمة الاقتصاد، وتكوين المهارات وأثرها على التعليم)، ترجمة: إيمان أحمد هريدى، **مجلة مستقبليات**، المجلد السابع والعشرون، العدد ١، مركز مطبوعات اليونسكو بالقاهرة، سنة ١٩٩٧، ص ٤١.

إن التعليم العام يوفّر أسس المهارة وعناصر المرونة اللازمة للوظائف الجديدة، أمّا التدريب داخل المؤسسات فيقع عليه عبء النهوض بنوعية وكفاءة تطوير الإنتاج، فهو يوفّر الميزات التالية:- [1]

١- إن أصحاب العمل يوفّرون تدريباً يعتمد على السرعة وتوفير العمل لاستخدام المهارة.

٢- إن تكاليف التدريب تكون أقلّ بكثير من تكاليفه قبل التوظيف

٣- إن المؤسسات الصناعية تمتلك الخبرة والتكنولوجيا اللازمة للتدريب.

٤- إن عمل المؤسّسات فى السوق وتفاعلها السريع معه يدفعها للتكيّف مع التغيّرات والمتطلّبات التكنولوجية الحديثة، ويشترط أن يقيّد هذا التطوير بطبيعة التوجّه الاقتصادى للمجتمع، ومن خلال الإشراف الحكومى لضمان الجودة والتحكّم فى مستوى التطوير كمّاً وكيفاً، وتحدّد الخبرة العالميّة ثلاثة عناصر لتحسين أداء الحكومة فى التدريب:-

أ) التركيز الملائم:-

بمعنى التركيز على المجالات التى تحقّق المنافع الخاصة الخارجيّة، وتحديد أوجه القصور فى السوق، أو نقاط الضعف فى برامج التدريب، وتحسين القدرات التنافسيّة.

ب) الاستجابة لقوى السوق:-

بالتأكيد على الروابط المعلوماتيّة القويّة مع أصحاب الأعمال وتشجيع المؤسّسات على التخصص فى احتياجات السوق.

---

١) المرجع السابق، ص ص : ٤١، ٤٣.

ج) تحقيق العدالة:-

يجب التركيز على إدخال "الفقراء" فى عمليّة التنمية بقوّة عملهم وتحسين إنتاجيتهم ومكاسبهم، ومساعدتم على الخروج من دوائر الفقر

ومن أهم عوامل نجاح الثورة التكنولوجيّة معالجة الأمراض التعليميّة المزمنة مثل الازدواجيّات الشهيرة بين التعليم الوطنى والأجنبى، ومشكلات التسرّب، المواءمة بين الكم والكيف و ... إلخ، فالسياسات المتبعة "جعلت من التعليم مجرّد وسيلة للحصول على شهادة متوسّطة أو عليا، لا تعبّر فى أغلب الأحوال عن المستوى الذى يناظرها فى الدول المتقدّمة، وفقد نظام التعليم فى جميع مراحله وبكل أشكاله القدرة على إعداد وبناء متخصّصين أكفاء على مستوى جيّد يفى باحتياجات الأمّة". (١)

ومن أهم عوامل نجاح الثورة التكنولوجيّة أيضاً تنمية ثقافة الإبداع والتفكير الابتكارى وتحرير العقل من الخرافات والتعصّب والجمود والتقليد وتدريب الفكر على الاقتحام والكشف والمصارحة، والتدريب على طرق التفكير العلمى للوصول إلى النتائج الصحيحة بالأدّلة العلميّة والبراهين المنطقية وفى هذا الصدد يعدّ تغيير نوعيّة التعليم التقليدى مطلباً حيويّاً. فتعليم المسايرة المعتمد على تحويل عقول التلاميذ إلى "سلّة نفايات" كما قال أحد الأساتذة عن تعليم الرياضيّات فى بريطانيّا عام ١٩٨٢، لا ينمّى مبدعاً ناقداً ولا يصنع فكراً خلاّقاً (٢)، هذا النوع من التعليم المعتمد على "ثقافة الذاكرة" هو تعليم "المخازن والعهد" الذى يحشو عقل التلاميذ بالمعلومات، ثم يستردّها (كالعهدة) وقت

١) أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص ١٤٤.
٢، ٣، ٤) سعيد إسماعيل على، (التعليم من المسايرة إلى المغايرة)، **مجلة سطور**، العدد ٤٠، القاهرة، سنة ٢٠٠٠ ص ١٤.

الامتحان، لا يقوّى سوى الذاكرة، ويربّى فى التلاميذ نزعة التقديس لكل ما يتلقّونه من معلومات عن طريق الكتاب المدرسى والمعلم والإذاعة والتليفزيون والإعلاميين، وهو يقضى على النزعة النقدية، أى يتيح وينتج مجالاً خصباً لترويج الآراء والفكر المنحرف والعدوانى والمتطرّف، بل والخرافى أيضاً دون تعرّض له أو نقد. (١)

إن التعليم المعتمد على التلقين والخزن يحيل المحتوى العلمى إلى قشرة خارجيّة هشّة تتحطّم عند الأزمات، فيتحوّل الشخص المتعلّم عنها إلى الخرافة من جديد، فالتعليم ليس مجرّد محتوى معرفى فقط أو مجرّد كم من المعلومات ولكنه طريقة للتفكير والتعامل، والتركيز على العلم كطريقة يحتمّ ربطه بالمشكلات الحياتيّة التى يعيشها التلميذ فى مجال حياته وبمعطيات هذه الحياة عن طريق:- (٢)

- التجريب
- التطبيق
- المناقشة
- الحوار
- الاعتماد على الذات
- المقارنة بين النظرية والتطبيق
- مقارنة الأداء
- اختبار القدرة على التدريب والتصنيف فى عمليتّى التحليل والتركيب.

٢،١)سعيد إسماعيل على،(التعليم من المسايرة إلى المغايرة)، **مجلة سطور**، العدد ٤٠، القاهرة، سنة ٢٠٠٠ ص ١٤.

التعليم فى بلادنا مجرّد قشرة هشّة غير صالحة للاستخدام سوى فى المؤسّسات التعليميّة، وتنكسر على عتبة أوّل أزمة من أزمات الواقع الحياتى المعيش، الذى يزدحم بالتقليد والنظرة المتخلّفة للوجود.[1]

إن التفكير مهارة يمكن تعلّمها وتعليمها عن طريق:- [2]

١- تغيير النمط التفكيرى والفلسفى الحاكم المسيطر (التقليدى).

٢- المشاركة فى المواطنة والوطنيّة، وتأكيد حقّ المجتمع فى هذه المشاركة (التفكير/التّخطيط/رسم السياسات/ممارسة النقد).

٣- كسر قوالب نمطيّة مناهج التعليم، وربطه أكثر بالبيئة.

٤- تشجيع التعدّد والتنوّع فى الكتب المدرسيّة، مع مراعاة التزامها بالخطوط العريضة للموضوعات والمواصفات.

٥- إتاحة قدر أكبر من الحريّة للدارسين والمدارس فى اختيار الكتب والمناهج.

٦- التخلّص من "فيروس" الكتاب المقرّر المؤدّى إلى النمطيّة والتقليديّة.

٧- ترك مجموعة من النقاط عند صياغة المنهج ليقوم بها التلاميذ بأنفسهم بتوجيه المعلمين، أى إتاحة "حق المشاركة فى الحصول على المعرفة" للتلاميذ، بجمعهم للبيانات والمعلومات.

٨- إتاحة الفرص للتلاميذ للمشاركة فى الحصول على المعرفة، بما يؤكّد أنّه ليس المعلم وحده أو الكتاب المقرّر، السلطة المعرفيّة الوحيدة ومصدرها المنفرد.

---

١) سعيد إسماعيل على، المرجع السابق، ص ص : ١٤ ، ١٥ .
٢) المرجع السابق، ص ١٥.

٩- عدم تكديس وحشو المناهج بالمعلومات، فتخفيف المعلومات قد يتيح الفرصة للتركيز على "كيف نتعلّم" أكثر من التركيز على "ماذا نتعلّم".

١٠- التركيز على عنصر المرونة فى التفكير لمواجهة التدفّق المذهل للمعلومات والتغيّر المتسارع الذى يصعب ملاحقته.

١١- جعل اشتراك التلاميذ فى الحوار والمناقشة أحد معايير توجيه وتقويم المعلم.

البحث العلمى:-

البحث العلمى ليس فقط القاعدة الأساسيّة التى تنطلق منها قطارات التقدّم فى كل الاتجاهات، بل هو أيضاً الوقود الدائم المحرّك لقطارات المعرفة والتكنولوجيا، وكما أن الهيكل الاقتصادى القوى أساس وجود المجتمع القوى فإن وجود هيكل قومى قوى للبحث العلمى هو أساس وجود وتطوّر الهيكل الاقتصادى، بل أساس وجود وتطوّر المجتمع نفسه، وتجب الاستفادة من نظم العولمة فى:-

- إنشاء المزيد من معاهد ومراكز البحوث الوطنية وتفعيلها إلى أقصى درجة ممكنة.
- توفير كل الإمكانات الماديّة والتقنية اللازمة للبحث العلمى، كقطاع خدمى أساسى.
- مطالبة الشركات الكبرى بإنشاء مؤسسات بحثيّة تابعة لها، كما هو قائم فى الغرب.
- تشجيع رأس المال الخاص على الدخول فى ميادين البحث العلمى كمجال استثمارى جديد.

- تشجيع رأس المال الخاص على تبنّى بعض مشروعات البحث العلمى التى تجرى فى المراكز الحكومية/الوطنية.
- خلق مسارات تعليميّة خاصة لأصحاب المواهب والقدرات البحثيّة لغير المتخصصين أكاديمياً لاحتواء الطاقات الابتكارية للمجتمع
- إضافة كوادر وظيفيّة مميّزة (مالياً، واجتماعيّاً، وخدميّاً) لاحتواء الباحثين والمبدعين وتدعيم صلاتهم بالوطن بدلاً من الفرار منه.
- تهيئة المناخ العام للمجتمع، ونشر التوعية بأهمية البحث العلمى وضرورة مساندته.

لقد أصبح تطوير النظام التربوى للمجتمع (والتعليم بصفة خاصة) قضيّة تحدّى وبقاء أو تلاشى وانتهاء، فالإنسان هو رأس المال الحقيقى الذى يجب تنميته على أسس علميّة صحيحة، وتنمية رأس المال البشرى. تعزز قدرات التنمية الاقتصاديّة، والقدرات التنافسية[1]، "ويمثّل الاستثمار فى التعليم والتدريب شكلاً أساسيّاً من أشكال الأصول المستجّدة التى تنتج أساساً أكثر قابليّة للاستمرار فى المنافسة، لأنّه من الصعب على المنافسين أن يحاكوها، وهى تسهم بعناصر خارجيّة إيجابيّة فى صورة رصيد متزايد من الأفكار والمعلومات والقدرات الإبداعيّة، وتتيح إمكانيّة التجديد والتحسين المستمّرين" [2]، وقد يكون من المفيد منح العلماء والخبراء المزيد من السلطة لمتابعة ومراقبة وتقييم آداء مؤسّسات المجتمع المختلفة من خلال برامج مخطّطة ومدروسة بعناية فى إطار

١) بادما مالمبلى، (المؤسسات عابرة القوميّة وتنمية الموارد البشريّة)، ترجمة: أسعد حليم، **مستقبليّات**، المجلّد السابع والعشرون، العدد ١، مركز مطبوعات اليونسكو، بالقاهرة، سنة ١٩٩٧، ص ٦٣.
٢) المرجع السابق، ص ٦٤.

سليم يساعد على النهوض بالمجتمع، ومن المؤكد أن تحديّات القرن الجديد تفرض نوعاً من التربية يراعى فيها :- [1]

١- أن تتميّز بالقدرة على إمداد الأفراد بكل ما يؤهّلهم للتوافق مع التغيّر السريع، بإعداد سيناريوهات المستقبل والاستعداد للتطبيق.

٢- أن توقّع التغيّر والاستعداد له يتطلّب تعليماً نظاميّاً يتسّم بالشمولية، والتكامل والاستفادة من تقنيات العصر.

٣- عدم الاقتصار على ثقافة الذاكرة وتنمية ثقافة الإبداع بما تتطلّبه من تكوين علاقات جديدة قادرة على إحداث تغييرات شاملة.

٤- الاهتمام بالأهداف والاتصال بنفس درجة الاهتمام بالمكان والحدود.

٥- الاتسام بالعموميّة مع مراعاة التخصص الأكاديمى.

٦- الاهتمام بالعلاقات الشخصيّة والمصداقية اعتماداً على تكنولوجيا الاتصال.

٧- الاهتمام بالإبداع الجماهيرى والقدرات العالية ومراعاة التفّرد.

٨- التركيز على معايير التربية للجميع، لأن الإبداعات والمواهب موزّعة بين الجمهور.

٩- الاهتمام بالعلوم البيئيّة، والمتعددة، والمتكاملة، مع عدم التمييز بين التعليم الأكاديمى والفنّى.

---

١) قسم أصول التربية، (**محاضرة فى الأصول الثقافية والاجتماعية**)، كلية التربية، جامعة أسيوط، ١٩٩٩ – ٢٠٠٠ ص ص : ١٨٤، ٢٩٦.

١٠- الاهتمام بالمقرّرات اللامتناهية من أجل تنمية المسؤولية، والتوجيه الذاتى بما يحقّق الجودة فى العملية التعليميّة ويزيد من درجة تفاعل التلاميذ.

هذه المعايير لا يمكن تحقيقها إلاّ من خلال منظومة تربوية متكاملة مرتكزة على دعائم المحافظة على البيئة، ونجاح التنمية الشاملة، والنجاح فى التنافس من أجل الثورة التكنولوجية وانتشار الديموقراطية ودعم الاهتمام بثقافة التنمية، ويمكن توضيح هذه الدعائم كما يلى:- [١]

١- التماسك والانسجام الاجتماعى والعرقى، والتأكيد على الهويّة القوميّة وتعميق التفرّد الثقافى، من خلال العمل بصورة جماعيّة.

٢- التأكيد على امتلاك المعرفة، وإقامة وزن كبير للنشاطات التعليميّة الجماعيّة، وتشجيع الإبداع الفردى، والاهتمام بدراسة الموضوعات التقنيّة والحرف المرتبطة بحاجات الوطن.

٣- إيجاد نوع من الترابط بين العوامل المؤثّرة على النجاح الاقتصادى.

٤- السعى لتحقيق معدّلات ادخار عالية ومستويات استثمار مرتفعة فى مجال التضيع الراقى.

٥- اللجوء إلى النظم التعليميّة التحويليّة، للعمال الذين يتّم الاستغناء عنهم، وذلك بتزويدهم بمهارات جديدة للمساهمة فى برامج التجديد التكنولوجى وتغيير مشاعر الناس تجاه التغيّر، وتوفير فهم أعمق للاتجاهات العالمية المعاصرة.

---

١) قسم أصول التربية، جامعة أسيوط، المرجع السابق، ص ص : ٢٩٦، ٣٠٠.

٦- ضرورة الاهتمام بالتحديات التكنولوجية، والمسائل المتصلة بالوحدة الوطنيّة، والهجرة، ومستقبل الزراعة، والدمار البيئى ومضامين التدويل، ومعاهدات الجات، والسوق الشرق أوسطية وأثر ذلك كلّه على القيم والثقافة.

٧- الاستعداد الجدّى للقرن الحادى والعشرين وتحدّياته لأسباب رئيسة ثلاثة :-

أ) القدرة التنافسية :-

عدم حصول جميع الدول على نفس مزايا الابتكار التكنولوجى والنمو الاقتصادى المتصاعد، وأثر هذا على مستوى المعيشة والحصول على فرص فى التعليم ووسائل التمتع بوقت الفراغ.

ب) ضرورة الاستجابة للتغيّرات الديموجرافيّة والبيئيّة باستخدام أساليب التنبؤ المستقبليّة، ومنها أسلوب "دلفاى"

ج) الحدّ من فرص الاضطراب السياسى والداخلى باستخدام الأساليب التربوية، والحدّ من ظاهرة الإرهاب.

٨- الأخذ بمفاهيم التربية المستمرّة بحيث لا تكون المدرسة هى المكان الوحيد للتعلم، بما يفضى إلى تناقص الوقت المخصص للتدريس، وظهور الأفكار الجديدة وتنشيط الإبداع والابتكار.

٩- الاهتمام بترابط جوانب العملية التربويّة المختلفة، وهذا لا يتحقق إلاّ من خلال البحث عن فلسفة تربويّة أكثر وضوحاً تؤكّد على

الجوانب القوميّة والإنسانيّة وتصنع نوعاً من التوازن بين الجوانب الإنسانيّة والجوانب الأخرى (الإيمانيّة، والوطنيّة، و ... إلخ).

الأسريّة فى مواجهة الفرديّة:-

تتسم الثقافة العربية بأنّها "أسريّة" ذات قدرات لا متناهية فى الحفاظ على الكيان الفردى والجمعى فى اللحظة ذاتها، بتفانى وتضحية كل طرف من أجل الآخر، فهى تحفظ للفرد حقوقه كافة دون الجور على الأسرة، وتحفظ للأسرة حقوقها كافة دون الاعتداء على الفرد، وتنظر للعالم كلّه على أنّه أسرة بشرية واحدة من أب واحد وأمّ واحدة، لا تفرقة ولا تمايز ولا استغلال ولا استعلاء ولا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى.

القضية – بطبيعة الحال – ليست قضيّة مصطلحات أو مسمّيات، بيد أن "الفكر الأسرى" قد يكون أفيد أو أفضل من غيره فى معالجة مشاكل وأزمات المجتمع فى ضوء تحديات العولمة، فقد استطاعت مجموعة من الدول الآسيوية أن تنهض من كبواتها وتجد أو تصنع لنفسها مكاناً على خارطة العالم المتقدّم، ثم تحوّلت إلى نمور تنافس وتصارع فى غابة الاقتصاد المعولم، وكان "الكيان الأسرى الاقتصادى"، على سبيل المثال أو "المصنع المنزلى الصغير" من أهم عوامل هذه النهضة.

ولا يعنى تعميم فكرة الأسر المنتجة (الصناعات اليدوية/ والتقليدية/ والبسيطة) فقط محاربة البطالة التى يفرزها نظام السوق، ولا يعنى فقط النهوض بالمجتمع اقتصادياً أو تجارياً بل وثقافياً واجتماعياً أيضاً وربّما لدرجة تحدّى الهيمنة الغربية، فالاهتمام بالمميّز محلّياً وترويجه يدعم ويوطّد هيكل الوطنى الخاص فى مواجهة المميّز عالمياً، إضافة لإفراز العديد من قيم التعاون والثقة

الإيجابيّة بين أفراد العائلة خلال عملهم والتى تقاوم بطبيعتها الاستغلاليّة والانتهازية الفردية.

وتنمية الفكر الأسرى يتعدّى حدوده داخلياً ليظلل على الأسر كافة خارجياً، بما يفضى فى النهاية إلى مجتمع قوى متماسك الأنسجة ومتفاعل الأعضاء، لتزايد إحساس القوى بحتمية مساعدة الضعيف، والغنى بضرورة مساندة الفقير، وهكذا.

وربما تحقّق فكرة "المصنع المنزلى" وإلى أقصى درجة فكرة تحرّر المرأة. (والتى هى من أهم مرتكزات الكوكبية) على أساس سليم، بمشاركتها فى العمل داخل المنزل، وهو ما نادى به القرآن الكريم ولم يدرك الغرب والعالم كلّه مغزاه وفوائده إلاّ مؤخراً ونادى بعودة المرأة للمنزل. فتحرير المرأة لا يعنى تحريرها من الالتزام، بل يعنى تحريرها من السلبية واللامبالاة والتهميش والاستعباد [1]، بالإضافة إلى إفرازات قيم المساواة والمشاركة التى تشعر بها أثناء عملها مع زوجها أو أبنائها.

وقد يتواءم الفكر الأسرى على نحو فريد مع الكوخ الإليكترونى المعولم، الذى يستطيع من يجلس فى داخله أن يستحضر العالم، وتصله المعرفة أو المعلومات بل والسلع أيضاً فى مكانه، (الكمبيوتر)، (المكتبة الإليكترونيّة)، التليفزيون الذكى [2]، فالفكر الأسرى أكثر تناغماً من غيره فى ظل مجتمعات ما بعد الصناعة، مع متطلّبات التنمية التكنولوجيّة الحديثة، من خلال:-

- إشاعة الروح والمفاهيم الأسرية عبر المجتمع كلّه

١) ليلى تكلا، (قبل أن ندخل طى النسيان)، **جريدة الأهرام**، ١٩٩٩/١١/٢٣.
٢) حسن الزين، (التعليم أمن قومى وضرورة للبقاء)، **جريدة الأهرام**، ١٩٩٨/٤/٦.

- تعميم ودعم فكرة "الأسرة المنتجة" أو "المصنع المنزلى" على المستوى القومى (خاصة بين الفقراء).
- إعداد برامج تربويّة خاصة لتدريب الأفراد على الإنتاج المنزلى.
- الاهتمام والتركيز على القيم الأسريّة فى المناهج والمقرّرات كافة.
- إيجاد نوع من التكامل بين "المصنع المنزلى" و"الشركات الكبرى" و"المدارس" و"الجامعات" و"معاهد ومراكز البحوث".
- إيجاد هيئات علميّة متخصصة فى ترويج المنتج الأسرى محلّياً وعالميّاً.
- إيجاد مناهج اجتماعيّة تتبناها كل مؤسسات المجتمع الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة لتنمية القيم الأسريّة، على شاكلة برامج التوعية والتدريب الصحى والثقافى الغربيّة لكل أفراد الأسرة لفترات العمل واستقبال المواليد الجدّد.
- البعد عن التأطير والأسلبة والاهتمام والتركيز على تنمية القدرات الإبداعية والإبتكارية والاهتمام بالموهبة.

العولمة والدين:

يعتبر نشر الوعى الدينى والفهم الصحيح للقيم الدينيّة – كما هو معروف للجميع - السبيل الأفضل للقضاء على الإرهاب والتطرّف الفكرى وحماية المجتمع من آفات الجهل والتخلّف هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى "فما من حركة تجديدية فى التاريخ الفكرى أو الثقافى عامة إلاّ واستلهمت التراث القديم واستفادت به بمستوى أو بآخر. هكذا تفاعل الفكر العربى الإسلامى إيجابياً أو سلبياً مع الفكر اليونانى، وهكذا كانت دعوى "لوثر" والحركة البروتستانتينيّة للعودة إلى الأصول تحديداً، وتطويراً للمسيحيّة، وهكذا كانت

محاولات "ماوتسى تونج" فى توظيفه للتراث الكونفوشيوسى فى تجربته الثوريّة"[1]، ولابد من الوقوف عند أمرين:-

١- العولمة والإسلام:

من غير الممكن الفصل بين العولمة وتوجهاتها الدينية، ليس فقط على المستوى التنظيرى ولكن على المستوى التطبيقى أيضاً، بحيث يمكن القول دون تردّد أنّها نوع متطوّر من الحروب الصليبيّة، فهى فلسفة العداء التاريخى المتأصّل للإسلام، وهى لا تخجل من الجهر بهذا العداء بأعلى صوت وتساعد سدنتها وأتباعهم على تأصيل وترويج هذا العداء لدرجة جعلت الغرب يجعل من الإسلام عدّواً رئيسيّاً بعد سقوط الكتلة الاشتراكية، ويزيد حشوده العسكرية حول المنطقة العربيّة (تطويقها) وفى داخلها (قلبها) أيضاً، والإصرار على إعادة "العراق" إلى عهود الظلام والبدائية كى لا يكون فقط عبرة للدول الإسلاميّة التى تحاول إنجاز نهضتها، ولكن ليكّون قرباناً يقدّم على أعتاب النظام العالمى الجديد حتى تعبر الرأسمالية على جثته إلى عرشها الذهبى الجديد المزيّن بدماء الأبرياء، لتدير شؤون العالم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لتشعل نار العداء بين الإسلام والمسيحية بصفة خاصة، بدلاً من أن تعمل على تنفيذ المبادئ الإنسانية التى تروّج لها على المستوى الشكلى فقط، وتفرغها بقوة من مضمونها على أرض الواقع: التسامح، التعددية، ... إلخ. فقد وصفت وسائل الإعلام "المشهد العربى" أيّام أزمة الخليج بأنّه "قبائل لها أعلم"، أمّا الإمبراطوريّات الرأسمالية فقد مارست لذّتها الخاصة

١) محمود أمين العالم، **الفكر العربى بين الخصوصيّة والكونيّة**، القاهرة، دار المستقبل العربى، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٨، ص ٢١٢.

باستخدام "موروثها الدينى" القديم بكثافة، ودأبت على ترديد مصطلحات المجد للعذراء"، و"البلد التى باركها الله *God Blessed Country*" (يقصد أمريكا) فبدا الأمر على أنّه استعادة لرموز الصراع المسيحى القديم بين "مدينة الله"، و"مدينة الشيطان"، وقد ذهب أحد جنرالات الحرب المعولمة إلى القول "بإننا فى حاجة إلى تعريف جديد لمعنى المدنيين الأبرياء"، فالبراءة تفقد كل اعتباراتها عندما تتعارض مع القداسة (القيمة العليا للمقدّس)، التى يتضاءل البشر فى مواجهتها حتى يظهر أقرب إلى المدنّس، ومن ثم فإن موت ملايين البشر لا يعدّ شيئاً ذا قيمة فى هذا السياق.[1]

٢- الحضارة والدين:

أكان الدين ومازال وسيظلّ روح الحضارات البشريّة بصفة عامة والحضارات الشرقيّة بصفة خاصة، "فمهما تطوّرت العلوم وانتشرت أساليب التفكير العقلى وتعمّقت وتعاظمت سيطرة الإنسان على الكون والطبيعة وعلى الحياة الاجتماعيّة، فستظلّ بل ستتعدّد الأخطار والمجاهيل والغوامض والتناقضات والفواجع والمفاجآت والتخيّلات والأسئلة الكونيّة والمصيريّة الكبرى مهما اختلفت طبيعتها أو تضاءل هامشها، وسيظلّ الدين عمقاً ذاتيّاً وجدانياً روحيّاً للإنسان وإن اتخذ أشكالاً وتجليات موضوعيّة متطوّرة مختلفة متعدّدة فى سلوك الإنسان ورؤاه وإبداعاته الفكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة والجماليّة والخياليّة، بل سيظلّ هذا العمق الذاتى الروحى الوجدانى، بصرف النظر عن التمثيلات

١) على مبروك، (صدام القداسات)، **مجلة سطور**، العدد ٤٢، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ص : ٨، ٩.

والرموز الدينيّة المجدّدة قسمة أساسيّة من قسمات إنسانيّة الإنسان" [1] ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل نجاح أى مشروع حضارى دون استناده على قاعدة روحيّة وجدانيّة ذاتيّة، وفى هذا الجانب الروحى تنحصر كل الانتقادات الموجّهة للحداثة الرأسماليّة والمتنبّأة بسقوطها أيضاً، وكانت الفوارق الضخمة بين التنظير والتطبيق الاشتراكى أحد أهم أسباب سقوط الكتلة الاشتراكية (سابقاً)، وهذا البعد أيضاً هو سبب فشل مشروع القوميّة العربيّة منذ مطلع الخمسينات على الرغم من ضخامة إنجازاته، "فتأسيس العصّبية الوطنيّة، والذاتيّة الفاعلة فى فضاء قيم الثقافة والمعادلة الحديثة، والتوظيف النفسى والمادى الهائل للجمهور المتفتّح حديثاً على الحياة السياسيّة والعموميّة لم يؤد إلى تحقيق الأهداف التى كانت مرتبطّة به، وقد اصطدم فى كل مكان فى العالم الثالث بعجز الدولة فاقدة السيادة عن حمل المهام، والردّ على الآمال الكبرى المعلّقة عليها فى إطار عالم أخذ يتّسع ويتوحّد شيئاً فشيئاً، ويعمّق قاعدة اندماجه الاقتصادى والسياسى" [2]، فقد "قاد الطموح لبناء الدولة القوميّة إلى تفريخ أكثر أنواع النظم الاجتماعيّة والسياسيّة ميكانيكية وانحطاطاً وانعداماً للحمة الوطنيّة (النظام الذى لا يقوم إلا بجعل الدولة باستمرار أكثر خارجيّة وخروجاً على المجتمع، ودفعها بصورة دائمة للبحث عن وسائل هذه الغربة عن الجماعة والتغريب)، وهكذا أيضاً لن يعمل وضع هذه الجماعات فى أطر الدولة والوطنيّة الحديثة على تكوين

١) محمود أمين العالم، (الفكر العربى بين الخصوصيّة والكونيّة)، المرجع سابق، ص ٨٤.
٢) برهان غليون، **نقد السياسة، الدولة والدين**، لبنان، بيروت، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٣، ص ١٩٦.

الأمّة ذات الإرادة الموحّدة، ولكن سوف يتحوّل بسرعة إلى أداة لتعميق تفكيك لحمتها التقليديّة التى كانت تعانى هى نفسها من التفسّخ والانحطاط" [1]، فالثقافة العربيّة القديمة، شأنها شأن الثقافات القديمة الفرعونيّة، والآشوريّة، والسريانيّة، والفينيقيّة، لا تعد منبعاً حقيقيّاً للقيم الروحيّة المحّركة للعاطفة والسلوك الإنسانى، (الفردى والجمعى) فهى لا تزيد عن كونها ذات بعد إثنى أو عرقى أو متحفى، والثقافة الوحيدة التى تعدّ مدخلاً للجماهير العريقة والمشاريع الحضاريّة هى الثقافة العربيّة الإسلاميّة بكل ما تحتويه من قيم محرّكة للسلوك وللحياة، وبما يسمح باختزان أطر رموزها لتصبح قاعدة لمدنيّة عالميّة فعليّة كما كانت عند اختلاطها بفكر الدولة الإسلامية. [2]

وقد لا تعتبر هذه الفكرة جديدة، ولا تعد أيضاً مطالبة بتكريس الماضى أو اجترار التراث وتكراره، ولا ترويجاً لاستنساخ التاريخ ولكن لتجاوزه وإبداع نموذجنا المعاصر بالاستفادة منه، فهى دعوة للتجذّر أو التجذير (من الجذور) إن صحّ التعبير، للارتباط أكثر بأرض الواقع قبل الارتفاع والتفرّع (التغضّن) حتى لا تقتلعنا رياح العولمة القوية، إنّها دعوى لربط الدين بالعلم بالحياة فى الإطار الصحيح.

فإذا كانت الثقافة هى الهيكل العظمى للجسم البشرى، وإذا كانت القيم هى الجهاز العصبى المسؤول عن التعامل مع العالم الخارجى والداخلى، فإن الدين هو النخاع المولّد لسائل الحياة (الدم)، وبدونه لا تكون حياة، والإحياء هو الوعى التاريخى الجديد لتفسير الواقع الاجتماعى، بإعادة التأكيد على الروابط

---

١) المرجع السابق، ص ١٩٧.
٢) المرجع السابق، ص ص : ٢٠٢، ٢٠٣.

العرقية والدينيّة والثقافيّة والمحليّة، أمّا الأيديولوجيات العظمى فهى آخذة فى الإنزواء، وهناك انتشار وانتظام وتقارب على المستوى العالمى لموجات تأكيد العرقيّة الثقافيّة، وقد أصبحت البلاد المسيحيّة كما هو الحال فى البلاد الإسلاميّة تحارب الحركات الدينيّة آثار العولمة المهلكة ووعودها الفاشلة والكاذبة بتحرير الإنسان ورفاهيّته، وقد حطّمت ديناميّات الأصالة والقوميّة أسوار الحداثة الحديديّة وعمّقت كراهيتها والإحساس بنقمتها وسخطها.[1]

ما بعد الصناعة و(ما بعد الإنسان):-

وفى النهاية يتبقّى سؤال : هل نحن على حق فعلاً فى كل ما ذهبنا إليه فى ضوء ثورات العولمة العلميّة؟ إن صورة المستقبل تثير رعباً هائلاً يفوق كل حدود المستحيل، مركبات فضائية ضخمة تحمل مئات الأشخاص بين الكواكب أو تنقل المواد الأوّليّة ومصادر الطاقة من الكواكب إلى الأرض عمارات فى الفضاء، مركبات فضائية تنقل وتهرّب الثروات من الكواكب التحكّم فى مواصفات الجنس البشرى (الذكورى والأنثوى)، إنتاج سلالات بشريّة جديدة أكثر قدرة وأكثر ذكاءً وأطول عمراً، استنساخ بشر متطابقين داخلياً وخارجياً تمام التطابق، إنتاج أعضاء (قطع غيار) بشرية، تخليق نوع بشرى جديد (شبه آدمى) يعمل ويفنى من أجل سعادة ورقى ورفاهية السادة الآدميين (الإنسان المدجّن الخرافى الذى تنبأ علماء مؤسسة "راندكور بوريشن" للبحث العلمى بإنتاج جيل منه مع حلول عام ٢٠٢٥م، وهو سوف يحيا حياة هامشيّة لفائدة البشر أو السادة التقليديين)، تركيب أجهزة إليكترونيّة فى حجم قرص الدواء تحت فروة الرأس أو فى التجويف الصدرى لمتابعة حالة الجسد البشرى، ربط

١) لويس بابيك، مرجع سابق، ص ص : ٥٢٥، ٥٢٦.

العقل البشرى بالعقل الإليكترونى واستنساخ المعلومات، القضاء على الشيخوخة وإطالة عمر الإنسان إلى ١٣٠ سنة، وتنوّع الخلق البشرى دون أى اتصال جنسى وهذا التنوّع هو:- [١]

١- الإنسان البشرى التقليدى.

٢- الإنسان المدجّن الخرافى.

٣- الإنسان المهجّن بالآلة.

٤- الإنسان المستنسخ بالمورثات.

إن أحد أهم أهداف ثورة البيو – تكنولوجيا هى التحكّم فى الشبكة العصبيّة، والسيطرة على الكيمياء البشريّة لتعديل سلوك الإنسان وتغيير أفكاره أيضاً، "والتحدّى المباشر للإنسانيّة بات ماثلاً فى مخاطر التدمير الذاتى نتيجة الإفراط التكنولوجى الذى يمتدّ من استبدال أجيال مستحدثة من العقول الإليكترونيّة بالإنسان، إلى استنساخ البشر، ومن الأخطار المهدّدة للبيئة إلى انقراض أجناس حيّة بصورة نهائيّة". [٢]

وقد ألقى الفيلسوف الألمانى "بيتر سلوتير دييك" فى "بافاريا" منتصف عام ١٩٩٩م، محاضرة أوضح فيها أن تطوير سلالة الإنسان بيولوجياً أصبحت ضرورة حتميّة وهو فى الرحم قبل ولادته، معلناً بذلك عن بداية الدخول إلى عصر التقنيّة البيولوجيّة من أجل تحقيق هدف "الإنسان المستنبط" أو "الفرز ما قبل الوضع" ويعتقد "دييك" أن هذا هو العلاج الوحيد لفشل النزعات الإنسانيّة وتحقيق ضبط السلوك (الموجّه) الحيوانى للبشر، فليس هناك أى طريق آخر لإصلاح صفات الجنس البشرى وإعطاء الفرصة "للتكنولوجيا الأنثروبولوجيّة" لوضع تخطيط

١) نهاد شريف، (زيارة لإنسان المستقبل)، **مجلة سطور**، العدد ٤١، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ص : ٨٥، ٨٧.
٢) اعتدال عثمان، (الإنسان الجديد)، **مجلة سطور**، العدد ٤١، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ٦.

واضح لصفات وخصال وخصائص الإنسان الجديد، فالعقود المقبلة سوف تشهد تأكيداً متصاعداً لحق الاختيار المسبق للتخلّص من "قدر الولادة"، إن بيتر سلوتير دييك يرى أن الفكر الإنسانى قد فشل، والهندسة البيولوجيّة هى الحلّ، وأن المعالجات والتقنيات الوراثيّة (الجينيّة) ستحقّق كل ما عجزت عن تحقيقه التربية الثقافية للإنسان/المتوحّش. (١)

وتعدّ دعوة "دييك" اعترافاً بخطأ الوجود الإنسانى منذ بدء الخلق وحتى الآن، لإن فحوى مضمونها هو فشل الإنسانيّة (التربية والثقافة والحضارة) فى إعداد إنسان مقبول، والعمل (البيو – تكنولوجى) هو الحلّ الوحيد لإحراز النجاح(٢)، من وجهة نظره.

١، ٢) أحمد المسلمانى، (ما بعد الإنسان)، **مجلة سطور**، العدد ٤١، القاهرة، سنة ٢٠٠٠، ص ١٥.

خاتمة

على الرغم من تعدد تعريفات العولمة وكثرتها، وشدّة الاختلاف حول معانيها ومضامينها إلاّ أنه قد يمكن إجمال معظم الآراء والتصوّرات حولها فى ثلاثة محاور:-

الأوّل: مؤيد للعولمة، ويرى أنّها تلاشى الحواجز الجغرافيّة/ المكانيّة، وتلاشى المسافات الزمنيّة، انكماش العالم، أى أنّه يركز على جوانبها الإيجابيّة، فيعتقد أن المجتمعات تنتقل من حالات التباعد والفرقة إلى حالات التقارب والوئام، ومن حالات العداء إلى حالات الوفاق، و ... إلخ.

الثانى: معارض للعولمة، ويرى أنّها تدويل كونى رأسمالى،وينطلق فى بناء تصوّراته من خطورة سلبياتها وكثرتها: زيادة نسب البطالة، زيادة الفوارق الطبقية، تلاشى الطبقة الوسطى، تآكل سلطات الدولة القومية، تلاشى الخصوصات الثقافية، تجمع الثروة فى يد ٥٪ من البشر (سكان أرخبيل الثراء)، تآكل الهياكل الاجتماعية: الرعاية الصحية/ التعليم/ الخدمات/ ...، إلخ، سيطرة رأس المال على بقية المجالات: السياسية والاقتصادية والثقافية و ... إلخ، باختصار شديد يعتبرها (أى العولمة) الشكل الاستعمارى الغربى الجديد/ المتطوّر

أمّا الفريق الثالث فيقف موقفاً وسطاً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء محاولاً الاستفادة بإيجابياتها: الاتصالاتية/ المعلوماتيّة/ التكنولوجيا/ ...، وتجنب سلبياتها، تحت ما يطلق عليه البعض "الوطنية"، والبعض الآخر "الوطننة" و ... إلخ.

وترجح شواهد المتغيرّات الدولية المتسارعة صدق اعتقادات أو تصوّرات الفريق الثانى (المعارض) إلى حدّ بعيد، خاصة عند قياسها بالتصرّفات الأمريكيّة (القطب الأوحد/المعولم) حيث بلغت حدّاً بعيداً من الإنحيازيّة للذات وللتابع الحليف، خاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، حيث جاء رد فعلها مبالغاً فيه بدرجة كبيرة جداً، فاعتمدت سياسات تغيير نظم الحكم بالقوّة، والسيطرة على مقدّرات الحياة فى العالم الإسلامى، بل والعالم الثالث كله، وعدم السماح بوجود أية معارضة قوية أو غنيّة، وربما يؤكد صدق هذه الاستنتاجات، ارتباط العولمة عند نشأتها بالعداء لبعض الثقافات الإنسانيّة، مثل الإسلام والاشتراكية.

وقد نجحت بعض الدول فى الاستجابة لمؤثرات وتداعيات الكونى المعولم بشكل فورى، مثل الصين، الهند، و ... ، على كل المستويات: الاجتماعية والاقتصادية وعلى المستوى التربوى بشكل خاص، باعتبار أن التربية روح الثقافة ونخاع نظام الاجتماعى الحامل لصفات حياته وجيناته الوراثيّة، فالنظام الكونى المعولم يتطلّب نظماً تربوية قادرة على التفاعل معه، بمعنى أن يتوفّر فيها مجموعة من الصفات، منها:-

- امتلاك القدرة على تزويد الأفراد بما يؤهلهم لإدراك كنه المتغيرّات العالمية والتوافق معها.
- امتلاك القدرة على التواصل: الاتصال بالآخر والتعرّف عليه، وتعريف الذات وإثبات حسن النويا.
- امتلاك القدرة على خلق مناخات متطوّرة من الثقة المتبادلة بين الأنا والآخر وتأكيد توجهات التكامل على المستويين: النظرى والعملى.
- امتلاك القدرة على تقويم الطاقات البشرية واستخدامها والاستفادة منها.

- تجاوز ثقافة الذاكرة إلى ثقافة الإبداع.
- الاهتمام بالعلوم البيئيّة، وتكنولوجيا الموجة الرابعة والخامسة (صناعة الثقافة/ الهندسية الوراثية/ المواد البديلة/ صناعات القضاء/ ... إلخ.

وتوازى انطلاق تيارات العولمة العاتية مع زيادة نشاط المراكز الثقافيّة الأجنبية المعبّرة عن ثقافة الغرب، وفى مقدمتها المركز الأمريكى، منذ سقوط الاتحاد السوفيتى (سابقاً) فى القرن الماضى - إلاّ أنه قد لا يمكن القول بأن فعاليات كل من الطرفين جاءت تعزيزاً للآخر، فقد انتعش نشاط هذه المراكز الرأسماليّة منذ انتهاج المجتمع المصرى سياسة الانفتاح بعد انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ - فظهرت مجموعة من الأنشطة العولمية المباشرة (إن صح التعبير) مثل محاضرات توماس فريدمان فى المركز الأمريكى بالقاهرة ثم بالإسكندرية ومحاضرات عن المواطنة العالمية وعن القرية العالمية الصغيرة، كما ظهرت مجموعة من الأنشطة العولمية غير المباشرة مثل: دراسات ودورات الكمبيوتر والإنترنت، كورسات وبرامج الاتصالات والمعلوماتية.

غير أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر أدّت إلى توقف نشاط المركز الأمريكى لفترة، وإلى إعادة هيكلة تعامله مع الجماهير (الروّاد/ الدارسين) وإلى زيادة الإجراءات الأمنية، مما أدى إلى انخفاض نشاطه، على عكس بقية المراكز الأجنبيّة الغربية التى مازالت تشهد رواجاً وانتعاشاً متزايداً مع زيادة الإجراءات الأمنية التى تمّت فى بعضها أيضاً مثل المركز الفرنسى والألمانى و ... إلخ.

فهل سيقرّر علماء البيو – تكنولوجيا (فى المراكز المهيمنة بالاتفاق مع النخب التابعة) تحويل شعوب العالم الثالث إلى جنس "تحت بشرى" أو "شبه أدمى"؟ أم يتقرّر إلغاء (مسح) ذاكرتنا الثقافية وإحلال ثقافة أخرى مكانها أو تركنا بلا ثقافة؟

هل ستسحب منا أو من الأجيال الجديدة (المعدّلة وراثياً) مشاعر الحب والحنان والعطف والانتماء ...إلخ ؟ أم سوف تلغى فينا قيم الإرادة وأفكار الشجاعة والصمود والتحدى؟ هل ستسلب منا القدرة على الرفض؟ هل ستلغى قدرتنا على التفكير أو قدرتنا على الكلام؟ هل سيتمّ تعديل عقولنا وقلوبنا بما يتناسب مع رغبات السادة؟ وهل ستكون هذه العمليات التحويليّة/ما بعد النوعية اختياريّة (قبلة للنقاش والتفاوض) أم إجباريّة (مباشرة أو غير مباشرة) كعمليات الهيمنة والسيطرة؟

هل سيقرّر علماء البيو- تكنولوجى تخليق إنسان التسلية الجديد (أبو ذيل طويل مثلاً بإطالة العصعص أو صاحب الأنف المتهدّل أو ذو الأذنين المتصلتين من خلف الرأس؟ وهل ستبقى الرأس أصلاً؟

هل ستزيد مراكز بحوث أو شركات تخليق البشر وتتعدّد توجهاتها وتتصارع فى السوق الكونيّة وتشتعل الحروب بين البشر الجدّد فى الفضاء أو على الأرض أو تحت الماء؟

هل .. ؟ وهل .. ؟ وهل .. ؟ ..

وقبل هذا كلّه هل سنعيش نحن أو الأجيال الجديدة المعدّلة (شبه الآدميين) مع سادتنا/الآدميين/فوق الآدميين، على كوكب الأرض أم نرحل نحن أو هم إلى الكواكب الأخرى؟ وهل ستبقى الأرض كما هى أرضاً؟ إن بعض

العلماء لا يؤمن بفكرة إصلاح البيئة التقليديّة ويرى أن خلق بيئة جديدة أفضل بكثير، فعلى سبيل المثال يرى بعض العلماء أنه بعد اكتمال تلوّث الهواء يمكن أن نصنع ونضخ نوعاً جديداً من الأوكسجين أو أى غاز آخر أفضل منه (معدّل أو مخلّق) ويؤدى نفس مهامه بتكاليف وجهد أقل، وهكذا بقيّة مكوّنات البيئة.

ويبقى السؤال كما هو!